بنات القمر

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: بنات القمر

تـأليـــــــف: عبير سعد

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنة النشر:2025

النـــاشــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القطع : 20*14

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 3592 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 0 - 605 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 446050

بنات القمر

عبير سعد

مجموعة قصصية

الإهداء

حواء

إليك..

إليكن يا كل بنات القمر

من إنسيات وبنات الجان

فلتعدن إلى فطرتكن

عسانا نعود حيث طُردنا

أو تنبت للجنة ظلال على الأرض..

الإهداء

آدم

إليك يا من بعثت حواء من جديد

بعدما ظنت أن وارتها سوءات الزمان

لتُقسم بعدد قطرات الحياة التي رويت بها روحها

أنك لكبيرهم الذي علمهم العشق..

كلت جناحات الفراشة، واستسلمت
ألقت بزخرفها أنقاضًا على الشطآن
وسنابل القمح العزيزة ضاع شموخها
حين غامت سماها وأمطرت حد الهوان
وجنة الأحلام ثارت جميع شياطينها
نثرت في كل الربوع بذور الخذلان
وشموع هذا الدرب كادت تنطفئ
بعدما أحرقت فؤاد بِحرِها نشوان
فالحب أعظم خدعة في التاريخ
أسطورة ثكلى حاكتها يد الإنسان
ولقد كفرت بكل آلهته بعد إيمان
لا عشق بت أرجو، لا رفيق ولا أمان
يا أنت فلتستفق من الجنون وفعله
اسمع صراخي.. لا تثق فالكل خان..

١
فتون

الساعة تدق الثانية عشر مساءًا، نام الأبناء أخيرًا، فكرت أن تصنع كوبًا من الشاي لتشربه مع زوجها الذي قلما تتاح لهما الفرصة ليجتمعا في جلسة وِد بعد أن كبر الأولاد وأصبحوا كالرادارات لكل شاردة وواردة بينها وبين زوجها.

ترتسم ابتسامة ساحرة على وجهها وهي تفكر، من يصدق أن سناء أصبحت في الثانوية العامة لا يفصلها عن دخول الجامعة إلا بضعة شهور، وأحلام هذه الشقية التي تصغرها بثلاث سنوات لكنها -ما شاء الله- تفوقها طولًا وعرضًا فتبدو أنها الأخت الكبرى وليس العكس..

أما الغالي محمد والذي قارب على العشر سنوات، فقد ربته منذ صغر سنه أنه سندها وحاميها وأختيه، حتى شب ونار الغيرة لا تهدأ بقلبه عليهن، فكان خليفة هذا الذي خرج ولم يعد..

دخلت إلى غرفتها، تتأمل كيف طبعت السنوات بصماتها القاسية على جسدها، صحيح أنها في شرع الزمن لا تزال من الجميلات، لكن شتان بين الشباب وبين الحال حين يدق شيب القلوب الأعتاب.

ترى بعين خيالها هذه الشابة الفتية تمشي الهوينى وسط زحام الشارع العتيق حيث ولدت وتسارعت سنوات عمرها لتصبح فاتنة الحي ومحط أنظار الجميع فيه، فإرثها من جدودها الأتراك لأمها قد تجلى في صورة تخلب الألباب، حتى عرفها الجميع "فتون العُثملية" اليتيمة التي تعمل أمها بالخياطة لنساء الحي لتكسب قوتهما بعد وفاة والدها، وكم من شاب وسيم خطب ودها، وأرسل أمه بالهدايا لتنال رضاها، لكنها قد وقعت

في شراك العشق، ولم ترض بسواه بديلاً، هذا "الصابر" الفتي، الذي حسده الجميع أن كان المختار الذي فاز بالجنة على الأرض، حتى تلاشى في يوم مشئوم حاملًا بحقيبته قلبها وكل أمانها..

نهرت نفسها لتماديها في أحلام يقظتها، فما بال أشباح الماضي تظل تطاردها صحوًا وفي الأحلام، فقد رحل صابر وترك لها ثلاث قطع منه يشبهونه في كل تفاصيله، حتى أنها تنظر لمحمد فتراه يتحول لنسخة مصغرة من أبيه يومًا بعد يوم..

نفضت عنها أفكارها وأسرعت تبدل ملابسها بما يلفت نظر رجلها ويرضيه عنها، فكت ضفائرها التي أصبحت روتينًا قلما تُغيرها، لتنساب جدائل شعرها كأمواج من الشيكولاتة المُغرية، رسمت عيناها ببعض من الكحل الأسود لتطمس بها دموعها وكل أسرارها، وأخيرًا بضع رشات من عطر الياسمين الذي تحب، لتكتمل صورة الفتنة المتجسدة بفتون..

حملت الصينية المزينة بالورود والفراشات وعليها كوبين من الشاي، لتضيف إليه طبقًا يمتلئ بالمخبوزات التي تتفنن في صناعتها كأمهر الخبازين، وطبق آخر فيه من أنواع المكسرات ما يناسب السهرة.

مدت يدها إلى الطاولة أمامها تحضر ريموت التليفزيون، تنتقل بين قنواته علها تصادف فيلمًا مسليًا أو حتى مسرحية قديمة تضفي بعض المرح على السهرة.

تتجمد أصابعها على أزرار الريموت، ترتعش خلاياها وكأنما ضربتها صاعقة من السماء، تتسع حدقتاها في ذهول، تحاول أن تحرك لسانها لتنطق، فتجد الكلمات وقد تسربت من عقلها تاركةً هوة عميقة اتسعت بمقدار سنوات الغياب، فما بقى لها سوى الذهول والصدمة..

تنتقل بنظراتها بين شاشة التليفزيون التي تنقل صورة لشخص ممن أنقذهم الثوار من قبور صيدنايا المظلمة،

يحكي المذيع كيف ظل هذا الإنسان حبيس هذا الجحيم لما يقرب من عشر سنوات، حتى فقد ذاكرته وعقله.

تراه بشعره الأغبر الأشعث، لحيته التي شابت وتبعثرت وكأنها أشواك تنبت تحت أشجار جدباء نمت وجفت دون أن تشرق عليها الشمس يومًا، فاضت عيناها بالدموع، تهدد أسوار ذكرياتها بالانهيار، لتصنع طوفانًا لن يُبقي ولن يزر..

يحدثها زوجها شارحًا كيف تطورت الأحداث في سوريا في غضون أيام قلائل، وكم الجرائم التي ظهرت للعالم أجمع بعد هروب الطاغية، حتى طغى ما ظهر في سراديب صيدنايا من أهوال على روايات الرعب وقصص الخيال، ليصعق كل من يملك قلبًا ينبض من قدرات الإنسان على البطش بأخيه الإنسان..

لم تحرك ساكنًا ولم تنطق، فاستطرد "عطية" يحكي ما تابعه على مدار يومين على الشاشات المتناحرة كل تبع هواه ينقل ويحلل ما يخدم مصالحه، يحكي بعضهم

كيف أن الثوار محض جماعات إرهابية، والبعض الآخر يحكي كيف يستميت ثوار سوريا المغاوير من الوصول لأبواب هذا الجحيم وتحرير ساكنيه، وحينما نجحوا.. شاركهم العالم أجمع النحيب على الإنسانية المُهدرة على أعتاب شياطين الإنس..

تنظر لزوجها وتكاد لا تسمع كلماته، تعلقت عيناها بهذا الرجل الأشعث الأغبر المرتعش الذي يخاف الكاميرات فيحاول الهرب والاختباء، بل يجاهد في سبيل الفرار من بين أيديهم والعودة إلى أي ركن مظلم وكأنهم قد أنقذوا بعضه ومازالت روحه تهيم في سراديب الظلام.

تسترجع سنوات مرت منذ وقفت تودعه دامعة العينان، ومن خلفها تتشبث صغيرتاها بأطراف ثوبها الذي يبرز من أسفله انتفاخ يشي بقرب قدوم طفل جديد لينضم لهذه الأسرة الهادئة.

تضع يدها بحنان لتُهدأ من روع الصغير الذي أحس بحزنها فأعلن مشاركتها إياه ركلاً وثورة داخل رحمها حتى دمعت عيناها، في حين تُلقي بيدها الأخرى لتضم بناتها لا تعلم من منهن يستمد الأمان من الآخر، هي أم هما؟

تتلاقى نظراتها مع حبيبها المفارق أحضانها بحثًا عن الرزق في بلاد النفط والعملات الأجنبية، أملاً في حياة مستقرة لأحبابه، دموع لا تعلم أتناثرت على صفحات وجهها خوفًا من المجهول، أم من جبال الوحدة المتربصة بها في غيابه، فما بقى لها من الحياة سواه وأولادها، لكن ما باليد حيلة، فقد ضاقت الأرض وشح الرزق، وما بقى سوى الترحال أملًا في غدٍ أفضل ..

تتذكر ضمته لجسدها بكل قوته قبل أن ينطلق مغادرًا، وكأنما أراد الاندماج بخلاياها أو أن يرجعها إلى حيث كانت ضلعًا أعوجًا يحمي قلبه من طعنات الحياة..

خرج وانقطعت عنها كل أخباره، وكأنه سراب تبدد تحت حر الغياب، حاولت بكل الطرق التي سمحت بها محدودية إمكانياتها، فلم تجد إلا السراب..

خمس سنوات من الغياب تمُر، وتجبرها الوحدة وسط قطعان الضباع التي تنتظر الفرص لتنقض على شرفها أن تستسلم للواقع المرير، لقد رحل صابر بلا عودة، بل لقد أُعلن رسميًا في عداد الأموات – وليته كان.

حتى جاء اليوم الذي أهداها القدر بعطية - وهو اسم على مسمى، فقد كان عطية الله لها ولأولادها، هذا الجالس بجوارها، جارها الخارج من زواج فشل لكونه عقيم، فكان لها ولفلذات كبدها نعم الأب والسند، لم يدخر جهدًا لإسعادهم، ففاز بحسن عشرتها واحترامها، ولتُبنى على القلوب شواهدًا لقبور الذين رحلوا..

لحظات مرت عليها وكأنما تحولت إلى أشلاء امرأة انحنى كتفاها تحت ثقل ما تعاني، فعقلها وعِشرة السنوات

والجميل الذي تحمله بعنقها لهذا الجالس بجوارها يحتضن ارتجافتها ويظن أنها تبكي جزعًا لما ترى من مآسي، تتصارع مع هذا القلب الذي يحاول النهوض محطمًا شواهد قبر الراحل ليبعثه من موتته الأولى وينفخ في ذكراه الحياة..

مد يده ليمسح الدمع المتساقط على خدود العثملية التي أسرته، نظرت إليه، ومدت يدها تلتقط ريموت التليفزيون وتغلقه، ليقوم ممسكًا بيدها متجهًا إلى حجرتهما ليهون عليها مرارة ما رأت من عبث الأقدار بالإنسان.

يحترق عقله بالأفكار، يحاول أن يُخفي انفعاله، يتظاهر أنه لم يعرف الرجل على شاشات التلفزيون، وأنه لم ير دموعها التي أخفتها، فلا يجب أن تعلم فتون أنه من كان السبب في انتقاله من العراق لسوريا بحجة عمل وهمي، ثم وشى به بعد سفره بأيام قليلة بأنه ينتمي للجماعات المناهضة للنظام، ليكون مصيره الظلام، وببعض الصبر

والهدوء امتلك هو فتون التي أرقته فتنتها لسنوات طويلة، فكانت هي الجائزة الكبرى بعد طول انتظار، ولا سبيل أبدًا أن تكون لسواه طالما بقى على قيد الحياة..

آن الأوان أن نعود لأصولنا
بعض من طين خلط بماء مهين
ليكف الظالم عن تجبره
لتزلزل دعوة المظلوم قلوب الجاحدين فيخروا نادمين
آن الأوان لنتخلى عن إرث الملعون
الذي جعل الكبر فتيلًا يشعل به كل خطايانا
لنتلظى تحت سياطها حتى يحين الأوان
لتوبة أو شقاء..

٢
بنت القمر

يجلس وسط الصخب المتعالي من الميكرفونات الصادحة بالأغاني الشعبية، ينظر كالمغيب من حوله، وكأنه ضيف لا علاقة له بهذا الحفل لا ملكه المتوج بالخيبة والعار، فهو العريس المحظوظ.. أو فلنقل بتعبير أدق العريس المغدور..

عاش الحياة كالممسوس منذ نبتت بضع شعيرات لترسم على وجهه بوادر الشباب، لم يترك منكرًا إلا وفعله، ليأتي في آخر الليل يختبئ في حضن أمه -التي غذت شياطينه بحجه أنه وحيدها- من غضب أبيه الشيخ الذي رماه حظه العاثر على تجرع مرارة التسلط من امرأة تخال نفسها سَبع الرجال..

طالما تغنت بجمال محياه، وطوله وعرضه الذي يجعله فتى أحلام أي فتاة، فصرف نظره عن التعليم والمستقبل، ليولي جل اهتمامه بمطارده المتمنعات وهن راغبات، معتمدًا على أموال أبيه التي ضاع شبابه يجمعها في بلاد البترول.

شب وتعاظمت معه فكرة أن لا حواء شريفة، فكلهن خاطئات، فلم تقابله بعد من أثبتت له العكس، حتى أمه التي رأي سعادتها بنظرات بعض الكلاب الضالة ونباحهم، فمن ستكون أفضل منها؟

لم يستوعب أنه يبحث عن الماس في صناديق القمامة، إلا عندما قابلها.. حسناء اسمها وحسنٌ كل ما فيها، أشعلت نيران قلبه يوم أشرقت على حياته البائسة كالشمس من شُرفة المنزل المقابل، فأهدته بعض دفئها.

خالها مثل من مروا ولم يتركوا أثرًا بعد أن نال مبتغاه، فهذه أتته راغبة، وتلك لبت منذ النداء الأول، ومن

تظاهرت بالتمنع، كانت ورقة بيضاء لونها مخضبة بكذبة العُرفي دوائها..

ها قد مر شهر كامل ولم يحظ منها بكلمة، أو ابتسامة، أو حتى نظرة غاضبة زاجرة، تتعامل مع مطارداته وكأنه السراب، فقد سمعت الكثير عن سقطاته، كما سمعت صوت أمه في كل مرة تخرج لتكيل التهم لهذه وتلك حين انكشاف أمرهن، بأنها تملك دليل إدانتهن، ولن تطال إحداهن من ولدها حقًا أو باطل..

يراها تلوذ بعزوتها من أب وإخوة رجال، مخافة أن يخدش قربه نقاء روحها، فيعتقدها تتدلل لتثير غرائزه وجنونه بعدم تملكها، فيزيد شيطانه لهاثًا ليحظى بها..

دق أبواب منزلها طالبًا النسب معتقدًا أن خاتمًا من ذهب سيكون مفتاح الوصول لجسدها الذي أرق أحلامه، فكان الطرد من نصيبه فهم لا يرضونه صهرًا..

شبت نيران الحقد بقلبه وأمه رييبه ليليث، فخططت لتمرغ أنفها وأنف رجالها في وحل الخطيئة، فمن يظنون أنفسهم ليرفضوا وحيدها المدلل!

راقبت وخططت وبدأ الشيطان المولود من رحمها وارث ضلالها وغيها التنفيذ، تبع الحسناء ذات صباح ممطر قل فيه المارة في شوارع الحي الهادئ في طريقها لجامعتها، تمشي سارحةً في ملكوت ربها تذكره وتسبح بفضله، لتصعق بمن يأتيها من خلفها راكبًا برفقة شيطان آخر أحد التكاتك، يحاول جذبها للداخل، فتقاومه بكل ما آتاها الله من عزم وقوة..

كاد أن ينجح في مسعاه، حين أحكم إحدى يديه حول جسدها والأخرى على فمها وأوشك على الفرار، لكن شاء الله أن يراه أحد الجيران ويتعرف عليه، فيتعالى صوته طالبًا النجدة ليلقيها خارجًا ويلوذ بالفرار..

كلمات منتحبة ألقاها على سمع أمه عبر الهاتف يخبرها عن فشل مخططها، لتسرع بالهرب قبل أن يسعى إخوة

الفتاة للقصاص منهم، وأخبرته أن يتبعها إلى حيث مسقط رأسها في واحدة من الواحات التي هربت منها صبية طمعًا في زوج سبور وحياة مرفهة، لتخبئ لها الأقدار حكاية مختلفة لا تلعب فيها دور سندريلا، لكن واحدة من المريضات الحاقدات على الجميع.. رجالًا ونساءً..

هربت به إلى حيث منزل أبيها القديم، فقليل من يعرفون أصولها الفقيرة، فكان هذا المكان خيارها الأمثل للاختباء، تمر عليهم الأيام وهم من سيء لأسوأ، فما حملته معها عند هروبها من مشغولاتها الذهبية أوشك على النفاد، فهي تبيعه قطعة قطعة مقابل الغذاء والحماية.. تنظر إلى مأساة ولدها وتتساءل ما مصير زوجها ومنزلها، وهل طالهم بطش الجيران، فلم تجرؤ حتى على الاتصال به للاطمئنان..

جلس والحنق يصبغ كل ما حوله بالسواد، حتى تفاصيل هذا البيت المُتداعي كقبر سقط على رأس صاحبه

ليهديه فوق موته موتةً أخرى أشد بشاعة، صور تعدو بخياله تزيد من جنونه.

تطارده تفاصيل حياته السابقة في كل لحظة كذئاب تنهش ما تبقى من روحه المُعذبة في هذا المنفى القذر، يقارن بين بيت أبيه الفخم وبين جحر الضب الذي آل إليه مصيره.
يحدث نفسه.. أين أنا من النقوش التي كانت تعلو فراشي الوثير لتستبدلها الأقدار بأعواد من سعف النخيل التي تعج بالزواحف والجرذان العملاقة التي تختلس النظرات بين الحين والآخر عله يغفو لتبدأ انتشارها باحثةً عن بعض الطعام تسد به جوعها في هذه الأرض القاحلة، يخشى أن يكون يومًا وجبتها القادمة إن لم تجد بديلًا..

ضاقت الجدران على قلبه فهرب من ظلال اليأس التي تجسدت تطل عليه من خلف كل جزء تداعى منها، خرج هائمًا لا يعرف له وجهه في هذه الواحة الخربة، فمنذ سكن هذا البيت لا يخرج إلا لشراء بعض الطعام له

ولأمه، فلم يشعر بأي رغبة في الخروج ولم يقو على ذلك حتى..

حملته قدماه إلى شارع مظلم يتجه نحو الشمال، يمشي مهتديًا بضوء القمر الشحيح المنعكس على طلوع النخيل فتبدو كالأشباح، يتذكر شوارع مدينته التي تتزين بالأنوار الساطعة فتحيل ليلها لنهار مشرق فتدمع عيناه، وتزداد رغبته في الانتقام ممن يعتقد أنها سبب شقاءه.

تسمرت قدماه وأبت أي حراك، تفصد جبينه بعرق غزير، واشتعلت بجسده نار كالجليد حولته لصنم ارتسمت على وجهه علامات الفزع، فعلى بعد أمتار قليلة، انعكس ضوء القمر على استحياء ليظهر بئر القرية البائس الذي أخبرته عنه أمه يوم نزلت الواحة، جدرانه سوداء كفوهة بركان خامد، يعلوها قائمين خشبيين كقرني شيطان يتدلى من بينهما حبل يحمل دلوًا.

يجاهد لشد الدلو المُعلقة بالبئر كائن مجهول الهوية، قصير القامة، لا يميز أهذا اللون الأسود هو لون بشرته أم

ما يرتدي، ينسدل عن رأسه كومة من الشعر الغجري حالك السواد تتبعثر من حوله حتى تصل إلى منتصف قدميه بطول يقارب المتر.

يجاهد ليتمالك نفسه، اعتصر عقله ليتذكر أي من آيات الكتاب ليستعين بها دون جدوى، فقد هربت منه هي الأخرى كما هرب من الجميع وهجرت ذاكرته المدنسة، لتتركه في مواجهة هذا الكائن البشع وحده..

صوت أنثوي حاد ينتشله من خيالاته المُهلكة، يأتيه من ناحية البئر الجدباء كمحيطها، من أنت أيها الغريب؟ يتساءل عن صاحبته أهي من بنات الإنس أم النداهة أم الشعور التي تظهر للرجال في الصحاري لغوايتهم وقتلهم!!

يراها تحت ضوء القمر الشحيح تقترب منه لتظهر معالمها قليلًا، تتسارع أنفاسه كلما أمعن النظر إليها، لابد أنها من بنات الجن، فأي إنسية تلك التي تتجول في

الصحراء ليلًا تمشي الهوينى يلتصق ثوبها بجسدها المنحوت من الأبنوس المصقول ويتناثر من حولها شعرها الثائر!

اختلطت الأصوات برأسه، فلم يعد يميز ماهيتها، أهو صوت نبضات قلبه التي تدق كطبول الحرب، أم صوت خلخالها يصلصل كلما لمست قدميها الأرض، أهذا زفير أنفاسه أم هي أنفاس تنين ينفث اللهب!!

حاول تحرير لسانه الذي عقده الخوف فهجرته الكلمات، تتسارع بداخله مشاعر شتى، يخشى مما يرى وتتمنى نفسه الموبوءة بنفس القدر لو كان ما يعانيه محض حقيقة حين وقفت أمامه لا يفصل بينهما سوى امتداد ذراعه ليلمس وجودها الحار كأنفاسها التي تحرقه..

همس بعد عناء ءأنسية أنت أم من بنات القمر؟ لتجيبه ضحكاتها اللعوب، تخلع عنه ما تبقى من ثوب تعقله

المهلهل، تلتف من حوله كالحية التي أغوت أبانا للخروج من الجنة، ليغرق معها في وحل الخطيئة، نسي للحظات من هو وكيف أوصلته أفعاله إلى هنا..

تلحفا بضوء القمر ليختلط بياض بشرته بسُمرتها، ورغم أنه لم يكن أول من حصد ثمارها، إلا أنها قد أذهبت ما بقى من عقله، انفصلا عن الواقع لم يعيدهما إليه إلا وخز الرمال المشتعلة تحت أشعة الشمس لجسدهما، وصرخة شقت الصمت ليتجمع أهل الواحة في لحظات معدودة وتقام محاكمة أخرى لشخصه البائس، لكن هذه المرة وهو متلبس بجرمه وعلى رؤوس الأشهاد..

يجلس في الساحة التي تتوسط الواحة، إلى جانبه "ونيسة" بنت القمر التي ألقته أقداره في طريقها، لتكون بداية مرحلة أخرى في حياته الملعونة.

يلتف من حولهم الجميع، ترشقهم العيون ما بين شامت ومشفق، فبعد أن صدر الحُكم عليهما في الصباح

أن يصبحا زوجين، توالت على سمعه وقلبه اللعنات من كل حدب، صعقته حقيقة من هي هذه الجنية التي ربطته إليها بجدائلها، سمع عشرات الحكايا عن البغي التي لا تخشى عرف ولا دين، رافعة الرايات الحمراء وسط قيظ الصحراء، اليتيمة التي لم تفلح جدتها الضريرة في تقويمها، فأصبح هو في طرفة عين التعس الذي حُمل خطايا سنوات غيها وانحلالها..

تحثه شياطينه على الهروب والنجاة بنفسه من براثنها، فمن تداولتها الأيدي كيف لها أن تصبح زوجةً عفيفة؟! كيف تكون هذه نهايته وهو من عاش الحياة يقطف ثمارها المُحرمة.. ينظر أمه التي تتشح بالسواد في ركن قصي لا تجرؤ على النطق ببنت كلمة، ضاع درعه الذي طالما اختبأ خلفه بعد كل مصيبة يقترفها.

أين المفر؟!

يخرجه من تيهه صوت الدفوف تتعالى لتزفه إلى الجحيم، وأنيسة تتشبث بذراعه، تدفعه نحو المنزل

المسكون بالجرذان الذي سيصبح مآله لآخر عمره بصحبة بنت الليل والقمر..

في أحلك أوقاتنا
نرسم ألف شمس مشرقة لتكسر ظلام يسكننا
نرتدي أزهى أقنعتنا وأكثرها بهرجة
لنواري خلفها سوأة أرواحنا
نتقن الغناء وتعلو أصواتنا ملفتةً الأنظار
أن أنظروا
ها نحن نطير كالفراشات فرحاً
تجذب ألوان الحياة العيون
فلا يُرى هذا الخيط الرفيع الذي يربطنا بأرض الشقاء
إلا من سكن الروح فأحس بغصة تسكن قلوبنا
ورأى انعكاس الأمطار المتساقطة
خلف بريق عيوننا الأخاذ..

٣
كوب يانسون بارد

مع شروق شمس الصباح.. تحايلت على جسدها المنهك بفعل الثمانين عامًا التي أثقلته، تستند على كرسي من البلاستيك ذو المساند، تجره إلى جانبها بعد كل خطوة في طريقها نحو باب منزلها المسكون بأشباح الوحدة والهجر.

تفتح باب دارها المواجه للطريق العام، تضع كرسيها أمامه، تحت الشجرة العجوز التي تساقطت أوراقها بفعل رياح الخريف المصفِرة فباتت كالمرأة التي وضعت عنها زينتها لتكشف سوءة الشيخوخة التي طالت جسدها لا روحها فتقف شامخة على أمل بعث جديد.

تراقب الطريق بنظراتها الغائمة خلف نظارتها عتيقة التصميم والتي اضطرت لارتدائها منذ بضعة شهور، فكم تمنعت عن ارتدائها ولم تقتنع أن البصر أوشك على الانطفاء إلا بعد أن ذاقت مرارة التجربة.

تتابع الأولاد يسيرون في مجموعات في طريقهم نحو مدارسهم، يصيحون ويضحكون في محاولات صبيانية للفت أنظار بعض الفتيات الطارقات أبواب الصبا على استحياء المارات بجوارهم، فتبتسم الفتيات، ويتم تبادل النظرات وبعض الهمسات بنجاح خفية إلا من مراقبتها الدقيقة.

يمر أمامها صبي القهوة التي تبعد عن بيتها بضعة خطوات يحمل على كتفة جوالًا من الفحم متجهم الوجه لا تدري ألثقل ما يحمل على كتفه أم ما يحمل في قلبه من هموم الحياة.

تناديه فيحاول التملص من الرد عليها، لكنها تُلح عليه فيأتيها كارهًا، تناوله عشرون جنيهًا بلاستيكية -تلك التي قل حجمها وقيمتها وبركتها- ليأتيها بكوب من الينسون وسندوتش من الفلافل من المطعم بجواره.

يرحل الفتى وتعود لتتابع الرائح والغادي، حركة الشارع ما زالت هادئة فقد اعتاد الناس السهر حتى وقت الفجر، والنوم بلا حياء حتى وقت الظهيرة.

تقارن الحال بعقود مضت حين كانت الحياة تدب في أوصال هذا الشارع مع ميلاد كل فجر جديد وكأنه نفخ في ساكنيه بعض من إصراره، يقذفون الكسل في بئر العمل السحيقة، يجدون في السعي نحو ورش الموبيليا المتناثرة هنا وهناك.

تتذكر كيف كانت المنازل عامرة بأسباب الرزق فلا يكاد منزل يخلو من ورشة أسفل منه، بعضها لفن الأويما الرائع الذي اشتهر به مِعلمي دمياط في العالم كله،

وبعضها للتنجيد أو الدهانات وكل ما يتعلق بصناعة الموبيليا.

تنظر إلى الجانب الآخر من الطريق حيث كان مقر ورشة معلم أستورجي لا يشق له غبار استبدلها صاحبها " نت كافية" يتسكع فيه ومن حوله الشباب يوميًا حتى ساعات الفجر الأولى..

تتهاوى بعض دمعات هاربة من ثقل ذكرياتها حين نظرت إلي باب الكراج جانبها لترى الأبواب المغلقة منذ وفاة زوجها الأسطى منجد الموبيليا الذي اشتهر في البَّر كله لإتقانه صنعته وضميره، عاش عمره يأبى أن يغش أو يحتال طمعًا في الثراء كما فعل الكثيرون.

تتذكر كيف طرق بابها صنوف من السماسرة وغيرهم ممن يريدون تحويل إرثها إلى مقهى، وكيف رفضت اعتزازًا بذكرى زوجها وخوفًا على الجيرة من الأذى.

لكنها الحياة التي دهست بسنابك الحاجة كل مبدأ، فسعى الجميع لمصلحته الخاصة ومن بعده فليأت الطوفان.

فوجئت ذات صباح بأصوات الدي جي تصدح في الجوار فأطلت من شباك غرفتها لتستطلع الأمر عساه فرح جار قريب، لتفاجئ بجارها يفتتح المقهى أسفل منزله دون أدنى اعتبار للجيرة.

لتبدأ معاناة الجميع بسبب ضوضاء القنوات الرياضية وقنوات الأغاني الرخيصة ليل نهار، ولتعاني من الدخان الكثيف الذي ينتشر حتى يقتحم منزلها، خاصة في الليل حين يختلط ببعض من رائحة الدخان الأزرق القادم من ما وراء البحار.

تأخر فتى المقهى في إحضار إفطارها، تعلم أنه يتعمد هذا كي لا تناديه مرة أخرى، لكن ما بيدها حيلة، فالوحدة ذل وكسرة، وكيف تعتب عليه فعله وقد هجرها ولداها كما

هجروا وطنهم بدم بارد، سافروا واحدًا تلو الآخر، فتفرقا في أرض الله الواسعة.

الكبير اختار الخليج وأمواله التي أغرته بالبقاء، فأرسل لأولاده وزوجته ليلحقوا به، خمس عشرة سنة لم تتكحل عيناها برؤيته وأحفادها إلا مرات معدودات، وعندما تشتكي شوقًا يمطرها بأعذار لا تنتهي، ليكون الوعد بلقاء في الصيف القادم.. والذي لم يأت بعد.

أما الصغير فقد خطفته أحلامه إلى ما خلف المحيط، حيث بلاد الخواجات كما تسميها، أرسل لأخيه الأكبر مطالبًا بحقه من الميراث، فقطع الخيط الذي ربطه ببلدته، وهاجر إلى حيث بلاد الاسباجيتي، لتغويه واحدة من بناتها المجهولة الأصل، وتظل أمه تتحسر أنها لم تختار عروسه ولم تحضر زفافه، وتفر دمعات أخريات حين أدركت أنه قد مر عشر سنوات منذ فارقها، لا صلة بينهما إلا مكالمة عبر كاميرات الهاتف حين يجد لها متسعًا في جدول أعماله.

أما ابنتها الوحيدة فقد زوجها والدها قبل وفاته لواحد من صبيانه الذي توسم فيه الصلاح، فاستأمنه على قرة عينه، لتعيش في كنف زوجها في بلدة صغيرة مجاورة.

بخرت ذكري أولاد ابنتها التوأم مرارة الدموع المتساقطة على تجاعيدها الغائرة، فقد اشتاقتهما كثيرًا وخرجت لانتظارهم، فاليوم موعد زيارتهم الأسبوعية..

صوت التلفاز يعلو ليصم الآذان، هاجت الجموع المتطلعة نحو شاشته حين أحرز هذا المليونير الراكض خلف الكرة هدف الفوز على الفريق الأبيض كالعادة، وتعالت الأصوات تهتف باسمه وكأنه سيقتسم مكافأة الفوز مع كل واحد منهم.

على بعد خطوات تقف سيارة الميكروباص بلونها الأبيض، تنزل منها سيدة أربعينية، ومن خلفها ولدان يقاربانها طولًا، تهرول مبتسمة نحو والدتها الجالسة أمام المنزل في انتظارها ككل أسبوع.

تمد يدها لتوقظها بلطف، فيبدو أنها قد غفت جالسة وهي تسند رأسها بكف يدها، تلسعها برودة أصابع والدتها المزرقة اللون، تهرب الدماء من عروقها وهي تناديها بصوت مرتجف لقد أتيت أمي..

يتعالى صراخها وتسقط أسفل قدم أمها الراحلة خلف نافذة الحياة، ليتجمع الجمهور الذي كان يهتف منذ لحظات، يقف كل منهم مشدوهًا ينظر العجوز التي جلست كسليمان النبي تراقب من حولها ولم يعلم برحيلها أحد، ويأتي من خلفهم صبي القهوة مهرولًا يحمل صينية معدنية صغيرة فوقها "شقة من الفلافل" وكوب من اليانسون البارد.

هنا مصانع الرجال..
هنا تشيب قبل الأوان غرة الأطفال..
هنا بين القبور يزهر الأبطال..
هنا غزة العِزة تحارب وحدها..
ويرقص على قبرها الأنذال..

٤
ميلاد حلم

لحظات تمر على قلبي وكأن الأرض بكل ساكنيها تجثم عليه، أدعو الله أن يلهمني الصواب والمثابرة، أكاد أجزم أن جهاد النفس هو أشد أنواع الجهاد.

كل ما مر بي من سنوات المعاناة والتدريب والقتال لا يغدو إلا أن يكون مجرد نزهة إذا ما قارنته بما شعرت به في الأيام الماضية.

لحظات مزقني فيها التناقض بين نفسي الأمارة بالسوء التي توسوس لي بالانتقام، وبين غرس سنوات من المثابرة والتمسك بتعاليم الإسلام التي تحتم علىّ الانصياع للسلام، فمن يرى وجهي الثابت وعيناي الجامدة لا يتخيل ما يجول بداخلي من صراع.

أتأمل حشد الجماهير المُصطف على جانبي الشارع العريض في وسط غزة الصامدة، تجاهد أضواء أعمدة الإنارة الشاحبة المتناثرة ظلام الليل لتعكس على وجوههم مزيجًا من المعاناة يتصارع مع الفخر الصادحة به عيونهم مع هتافاتهم المتعالية:

"تحيا غزة.. تحيا غزة".

"غزة الصمود.. غزة الصمود".

أجول ببصري هنا وهناك، فأرى إخوتي يتجولون في ثبات وهدوء صاحب الأرض الواثق من ولائها، يحتضن خطاهم ترابها المروي بالدماء على مر عقود من النضال.

أُسود تمشي الهوينى بزي عسكري مموه وغطاء رأس بلون الظلام الذي يلف واقعنا يبرز ومضات الشموخ في نظراتهم، يعصبون جباههم بشهادة التوحيد، لتكون شاهدًا على رسالة وانتماء ومعينًا عند الخطوب.

يفسحون المجال لرطل من السيارات الأُممية الموسومة بالعجز والتواطؤ، ترفع علمًا أبيض اللون يحمل صليبًا بلون الدماء التي وجب عليهم حقنها، ليقفوا بدلًا من ذلك مكتوفي الأيدي، معصوبي الأعين عندما يتعلق الأمر بدماء الفلسطينيين، وهاهم الآن يتسارعون تحت مظلة من الحماية الفائقة، ينتظرون من أجل استلام بعض الجبناء سارقي الأرض، مغتصبي الأحلام.

أتخبط بين الماضي القريب المكلل بالنصر للمرة الأولى منذ سنوات طوال -السابع من أكتوبر المجيد وكأنه موعد المسلمين مع العزة في أيام مباركات- وبين دروب الذكري التي تبعثر ثباتي، تنهمر دموعي حارة من خلف قناعي ليتشربها كما تشربت سجادة غرفة المعيشة في منزلي دماء أبي وأمي حين حاولا الزود عنا وحمايتنا من بطش الجبناء.

عشرون عامًا فشلت أن تقتلع من قلبي صرخات أختي الكبرى حين قرروا أن يتخذوا منها لعبة يمارسون عليها كل أمراضهم النفسية وخستهم المتوارثة.

كلما أغمضت عيني أراه يسحبها من جدائل شعرها المسترسلة خلف ظهرها لتقف على قدميها الضعيفتان المقيدتين بسلاسل تدميها، تستميت لتفلت من بين يديه القذرتين، تمد يدها مستنجدةً بأبي المكبل اليدين والقدمين والملقى أرضًا تحت قدم خنزير قذر يدوس رأسه الشامخة دومًا.

سياط من نار ألهبت روحي، وثارت حمم من القهر بعيوني حين رأيت يده تمتد نحوها، يتلمس صدرها في خسة وبطء، يسيل لعابه كضبع نتن الأنفاس جاءته فريسة تحتضر على طبق من فضة.
جاهد أبي للوقوف على قدميه ليرمي بجسده نحوهم يحاول الزود عنها، يخطف أنفاسي صوت رصاصة

انطلقت لتزين منتصف جبهته ليرتقي ويتركني لا أملك إلا صراخًا ينهش روحي عجزًا.

زوجان من الأنجاس يحومون من حولها، يتخطفون قطع ملابسها كالجوارح، أقاتل بكل قوة يملكها طفل لم يكمل عامه العاشر لتردعني قيودهم، يصوب أحدهم سلاحه نحو رأسي فأغمض عيني منتظرًا الخلاص.
تُلقي أمي بجسدها نحوي لتزود عني فتصيبها رصاصات الغدر، بعد أن تسللت أحدها لتصيب صدري، يعتقد المرتزقة أنني قد فارقت الحياة، لتُغتال روحي وتهيم بين دوامات من الوعي والضياع، أرى جسد أختي يُنتهك، وأحدهم يتلذذ ببقر بطن أمي الحامل ليخرج أخي إلى الدنيا جثة هامدة وسط بحر من دمائنا المسفوحة عدوانًا.

ينتشلني من دوامات الذكرى صوت أقدام كثيرة تعدو، سيل من الأضواء انهمر فجأة من العشرات من كاميرات التصوير المحمولة بأيدي مراسلي الصحف والقنوات

التلفزيونية التي تنافست ليكون لها السبق في نقل تفاصيل هذا الحدث الأهم لحظة بلحظة.

يتسارعون نحو سياراتنا القادمة ببطء تحمل بين جنباتها العشرات من الأسرى الذين عانينا لنوفر لهم الرعاية المناسبة وسط هذا الجحيم الذي صبه على رؤوسنا ورؤوسهم قادتهم الجبناء، الذين باعوا بني جلدتهم بكل الرضا معتنقين أقذر ما يخطر على قلب بشر من خصال، فتتساقط قذائفهم لتحصد أرواح الجميع دون استثناء.

سنوات من التخطيط والتنظيم، مدينة كاملة حفرت بأنامل اعتادت مسح دموع الثكالى من أمهاتنا وأخواتنا، بسواعد كانت الداعم لأبنائنا وإخواننا ممن فقدوا حياتهم أو بعض أطرافهم ليعيشوا بين أسوار سجن متنامي الأطراف اشترك بنو جلدتنا في إحكام إغلاقه في وجوهنا لنموت جوعًا، ألمًا، قهرًا قبل أن نموت بأيدي المحتل الغاصب، بقلوب تغلي حممها أسفل قشور من

الصبر تنتظر اللحظة المناسبة لتعلن عن موعد القصاص.

عقول تشبعت بالتحدي، خلقت من أضعف الإيمان سلاحًا أرهق العدو وأزهق أسطورته التي لا تقهر، نسور حملتنا فوق أسوار المستحيل لنعبر نحو النور، نستنشق عبير الأرض المشتاقة لخطانا ولصوت تكبيرنا يتردد بين جنباتها فيحييها بعد بوار.

فارقة هي لحظات البداية حين يختل توازن عدوك عند الصدمة الأولى، صراخ هنا وهناك، الكثير من المخنثين المتجمعين في حفل يتمايلون كالأفاعي، لم يخطر ببالهم مرة أن يكونوا أسرانا، طالما تعالت أصواتهم مهللين لأسر إخواننا، واليوم تتعالى نفس الأصوات بالنحيب حين ذاقوا بعض من كأس الذل، يتقافزون كجراد منتشر هلعًا، فأردد قوله تعالى:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ ﴾[1]

دقائق فاصلة عشناها في قلب بيوتهم، نمشي في الشوارع الخالية من كل مدافع عنها، تشرق أمام أعيننا شمس الحقيقة، نرى الفرق بيننا وبينهم، بين من يدفع روحه فداءًا لوطنه، وبين المغتصب المعتدي، فالسارق لن يؤلمه يومًا ضياع ما لم يملكه من البداية، ولن يدفع روحه دفاعًا عن أرض غيره.

عدنا نحو مدينتنا الخفية عن أنظار العالم، المحفورة تفاصيلها في قلوبنا، نصطحب غنيمتنا والتي ستكون ثمنًا بخسًا نساوم به الأرازل في مقابل الإفراج عن بعض أهلنا وإخواننا من المعتقلين خلف أسوار الاحتلال لسنوات وسنوات.

---

[1] الحشر: ١٤.

أسير بين المتزاحمين حاضرًا بجسدي، تهيم روحي بين شتات متاهاتها، أتقدم نحو أولى السيارات، أفتح بابها تحت أنظار العالم الذي يشاهدنا في بث مباشر حرصنا على توفيره لنوثق اللحظة، وليرى العالم المغيب الهوة الشاسعة بين أخلاق المسلم ووحل الخنازير.

أُنحي سلاحي جانبًا، أمد يدي لأساعد إخواني في تسليم الأسرى، أتأملهم بثيابهم النظيفة، ووجوههم التي تنطق بالراحة والسعادة، تمد "سارة" يدها نحو يدي تربت عليها تشكرني على حسن معاملتها وتخبرني أنها لن تنسى كيف قدمت لها من الإحسان ما بخل به أولادها، وأنها لن تنسى أبدًا ما مرت به في الأيام الماضية، وكيف تبدلت نظرتها للحياة التي عاشتها منساقة خلف قطيع من المجرمين.

أبتسم من خلف قناعي لكلماتها، أربت على يدها المتغضنة رحمةً بعجزها ولو كانت بين صفوف عدوي، أبتلعُ غصة تختنق تحت وقعها روحي، أمنعها من

المقارنة، أحدث نفسي ماذا جنيت وكل أطفال فلسطين لتكون ذكرياتنا أشلاءً ودماء؟! ما الذنب الذي اقترفته أيدي أهلنا لتتحول بيوتنا قبورًا جماعية تجثم فوق أحلامنا لتخنقها؟! ولم لم يجدوا يومًا من يرحم ضعفهم ويمد لهم يد السلام والإنسانية.

أسمع صوتها الرقيق يجاهد بين الضوضاء المتصاعدة تناديني:

- يا أنت.. يا من بدلت نظرتي للحياة؟

أتعجب كيف تعرفت على من بين الجميع! أنظر إليها فأرى فيها صورة تشبه أختي لو كان قُدر لها النجاة، تبتسم عيناها تحكي قصة محرمة، أتذكر كلماتها، وكيف أسرتها صلواتنا وتلاوتنا للقرآن، كيف شغلها أن تسأل لتعلم الحقائق المخفية خلف كواليس الإعلام المدلس، تقارن بين ما تراه عيونها وبين أكاذيب ترددت لسنوات عن وحشية المقاومة وكيف يتوجب إبادة كل هذا الشعب المتوحش لينعموا بالسلام.

تشكرني بكلمات وثقتها عدسات الكاميرات الفضولية، لتبُثها للعالم المغيب عساه يستفيق، تخبرني أنني على الوعد، سأعود لبلدي، أجاهد بكلمة حق أنقل بها ما عشته معكم، أنقل صرخاتكم لتسمعها آذان صمها الخداع، سأكون رسولًا أحمل رسالة السلام من أرض فلسطين الأبية علها تنتشر بين ربوع الأرض.

ألوح لها وقد نثرت بعض بذور الأمل في أرض قلبي القاحلة، أتخيلها في عقر دارهم تصرخ منددة بالإبادة الجماعية، أراها تحمل لافتة كُتب عليها " free palestine" ليردد من خلفها العالم أجمع "فلتحيا فلسطين حرة" تداعب مخيلتي أسوار القدس المشرعة أبوابها أمامنا تستقبلنا بكل الشوق، تلمع عيوني بانعكاس الذهب المتناثر مع أشعة الشمس التي تحتضن قبة الصخرة يوم الفتح العظيم، لأستفيق على بث تنقله الكاميرات لأسرانا المكبلين بقيود العدوان يساقون نحو بوابات الحرية تحت تهديد الطائرات المقاتلة.

فريسةٌ أنا
في مهب ريح عاصف
تمتد أيدي الظلم، الجهل
الفقر والخنوع لتخنق أنفاسي
أعدو لأهرب بأحلامي
نحو غد مجهول النسب مطموس المعالم
تتطلع نحوي عيون يملؤها بريق الرجاء
فتغشى عيناي دموع العالِم بالواقع المرير..

٥
عندما قالت لا

عيون تغشاها الدموع، تفيض فتخلق نهرًا من نار يشق مساره علي وجنتيها، ليل حياتها الكئيب يمتد ليبتلعها كما الثقب الأسود، ينقلها من عذاب لضياع، يُفتت أحلامها وينثرها كرمادٍ متطاير في يومٍ عاصف..

تعتلي سورًا على ارتفاعٍ شاهقٍ، ترى البشر كأنهم مخلوقات ضئيلة تتسابق لحتفها، تتخيل حكاياهم ومعاناتهم، من منهم هو الصياد ومن الفريسة، أتراهم يتألمون مثلها أم كُتب عليها وحدها المعاناة!، أَقُدرَ عليها أن تدفع ثمن أخطاء غيرها مدى الحياة! أم هي المذنبة دومًا كما يحلو لهم وسمها بكلماتهم؟!

يتملكها الهلع واليأس من حياة ما قدمت لها سوى الألم مصحوبًا بخيبات تتوالى على أيامها، حتى فقدت بريق روحها وصارت كشبح يسكن جسدها المتعب..

طعنات تتلقاها من كل عزيزٍ ظنته يومًا طوقًا للنجاةِ يصحبها لبر الأمان، فتراه شيطانًا آخر تَجَسَدَ ليزيد لوعتها وشقاءها..
لم تعد ترى في الحياة قَبسٌ من نور يرشدها، فقد تخلى عنها الجميع حتى أقرب الأقربون يتلاشون من حولها، وكأنها عبءٌ يثقل كاهلهم، حتى ضاقت بها الأرض بما رحبت..

تساؤلات تتسابق في نفسها، ما جدوى حياة تتكحل بالسواد ولا ينير عتمتها بصيصٌ من أمل؟

تتذكر أمها.. من كانت ملجأها، تفر إلى أحضانها، تُلقي بأحمال قلبها بين يديها فتلملم شتاتها وتدعو لها بالفلاح

والعوض، لم تتحمل نهش هذه الضباع في عِرضها، لم تقو على مواجهة من جعلوا من فلذة كبدها وجبةً من لحمٍ ميتٍ يقتاتون عليها، لم يتحمل قلبها الضعيف وصمة عارٍ ألصقوها بها زورًا وبهتانًا، استسلمت لأنيابهم يمزقون بها قلبها المُثخن بالندوب، لم يمهلها القدر، فتخطفها الموت في لحظات أجهزت على ما تبقى من تماسكها..

يتسارع شريط ذكرياتها أمام عيونها كفيلم تراجيدي، يذكرها بالملاحم الإغريقية التي تُغلق صفحاتها دومًا بالفناء، سنوات مرت لم تهدأ فيها روحها..

يتجسد أمامها يوم علم أبوها بمرضٍ أصاب قلب أمها الضعيف، يومٌ بائسٌ حُفرت تفاصيله في ذاكرتها، ليغتال أمانها، يومٌ تهاوى فيه سقف ثقتها فتبعثر كأجزاء أحجية تتلاعب بها أصابع طفل صغير، يومٌ كان فيه جزاء الابتلاء عقاب بالفراق، يومٌ أصبح فيه المرض ذنب لا يُغتفر، وصمةُ عارٍ تستدعي الهجر.

لم تعد أمها بقلبها المحطم تليق بذكورة أبيها الثائرة، فتركهما ليبحث عمن تليق به، وتعطيه ما أصبحت هذه المرأة المستهلكة عاجزةً عنه، أرداها برصاصة كخيل تكسرت قدماه، ولم يهتم ويرحم ألمها بل تركها تنزف وجعًا لما تبقى من عمرها..

طفلة مسكينة هي، ومسكينة أم حملتها بقلبها المتهالك، فقد أصبحت عبئًا على أحلام أباها الوردية، فألقاها بطول ذراعيه، بلا مبالاة، لتصبح جزءًا من عقاب أمها على مرضها، حتى الفتات الذي أنعم به على فلذة قلبه، ضن به ليمنحه بكل السعادةِ لطفلةٍ تكبرها ببضع سنوات، اتخذها زوجةً جديدة لا سقف لمطالبها، فلم يتبق لها منه شيء، كادت تنسى ملامح وجهه، حتى عندما لجأت إليه ليحمى ضعفها وعجزها، كان أول من جلس إلى مائدة عرضها يقتات منها انتقامًا..

يتردد صدى كلماته في قلبها، عندما فاضت عيونها أمامه تنتظر منه أن يضمها إلى صدره حاميًا، ليلفظها برعونةٍ بعيدًا، تقطر كلماته سُمًا:

- جيالي ليه يا بنت أمك، أنا مليش بنات، واحمدي ربنا إني مقتلتكيش لدلوقت ودايرت عارك، ما دي آخر تربية النسوان..

حاولت الاعتراض، أن تقص عليه مأساتها التي كان هو واضع حجر أساسها بتخليه عنها، لتكون مطمعًا للضباع تقتات على حاجتها وضعفها، أرادت الصراخ به:

- وأين كنت طوال هذه السنوات، لمَّ كانت طلقتك الثانية من نصيبي بعد طلاقك لأمي؟! لِمَّ جعلت من لحمي وعِرضي مائدةً يمد كل عابر يده لينهش بعضها دون رادع؟!

عاشت سنوات عمرها تتخفى كشبح لا ينتمي لدنيا البشر، تخشى نظراتهم، أصبح التعامل معهم عقابًا شديد البأس على نفسها، ولولا حاجتها للمال ما فارقت جدران غرفتها أبدًا.

كان إيجاد عمل يقيها ووالدتها مُرَ الحاجة أقصى أمانيها، وحين أوشكت على اليأس جاءتها البشرى بعملٍ في أحد محلات بيع مستحضرات التجميل واللوازم النسائية، براتب يكاد يكون كالعدم، لكنه أفضل خياراتها في الوقت الحالي، فلا مجال أمامها سوى القبول..

تتوالى الذكريات على مخيلتها كومضات شريط سينمائي، حين باتت يلاحقها الفقر وذل الحاجة ولم تجد أمامها سوى يم شديد الظلام لِتُلقي بنفسها بين أمواجه المتلاطمة، ففي النهاية يتشابه المصير..

ترى مالكة المتجر، هذه السيدة المتصابية، المستبدة التي خالت نفسها قد ملكت روحها ببضع جنيهات تلقيها إليها، تستنزف روحها وجسدها في مقابل هذا الفتات، أعتقد حقًا أنها كانت في حياتها الأخرى من مالكي العبيد في عصور الظلام القديمة، امرأة نُزعت الرحمة من قاموس حياتها..

وجاء ولدها المدلل ليقضي على ما تبقى في حياة هذه الطفلة المسكينة من أملٍ يحتضر، راودها عن نفسها فأبت، أغراها بالمال فتمنعت، ضرب على أوتار قلبها المُسخن بالجراح فما وهنت، فكان انتقامه منها مدويًا، صورٌ مفبركة نشرها بين ضعاف النفوس على مواقع الدمار الاجتماعي، انتشرت كالنار في الهشيم، محرقةً آخر أمل لها في حياةٍ كريمة..

أُقيمت المحاكمة علنية وعلى رؤوس الأشهاد، وقدم الجاني شهودًا باعوا ضمائرهم بثمن بخس، تكالب عليها كل دنيء، وعلى الرغم من تأكدهم من برائتها، لم ينبس أحدهم ببنت شفة دفاعًا عن شرفها الذي لطخوه زورًا وبهتانًا..

تراها كالمذبوح الذي تأبى روحه أن تفارقه، تتخبط بين هذا وذاك، عل أحدهم يمد إليها يد العون وطوقًا للنجاة، فوجدتهم كالضباع النتنة يقتاتون من لحمها، وكأنهم أبوا

أن تكون القذارة حكرًا عليهم، فأرادوا لها أن تتقاسم معهم نفس المصير والضياع..

ضاقت ربوع الأرض عليها قلبًا، جسدًا وروحًا، تنظر إلى الشارع -أسفل البناية حيث يقع المحل الذي كانت تعمل به- من بين دموعها فتراه مكتظًا بالبشر لا يشعر بها منهم أحدٌ، تُلقي نظرة وداع أخيرة على حياةٍ لم يكن لها منها نصيبًا، تُغمض عيونها، يلوح شبح ابتسامة على شفتيها وهي تحس بنسمات الهواء تحتضن جسدها المتهاوي كأحن ما يكون الاحتواء.

قربانٌ أنا
أتشبث ببقايا عمر أُهدر على طرقات الأحلام
أتخذ من أفكاري ملاذًا تتحصن به روحي المتعبة
أتجرد من كل حطام الحياة
إلا فكرة هي كل كنوزي وميراثي
هي الباقية بعد سفح دمي على طرقات النضال
يخالون أنها النهاية وأعلم أنه ميلاد جديد..

٦
أدرينالين

ينطلق بدراجته البخارية بسرعتها القصوى في هذا الطريق الموحش المُوصِل بين بلدته الريفية وأخرى مجاورة.

تجلس من خلفه زوجته أم أولاده، يشعر بضيقها ورهبتها، فهو يعلم يقينًا مقدار خوفها من ركوب دراجات الموت هذه كما تسميها، لكنه لا يستطيع السيطرة على شعوره بالنشوة الذي ينتابه كلما أحس بارتجافها وهي تحاول التشبث بثيابه هَلِعَه.

تسري دفقات الأدرينالين في عروقه كشياطين تُعمي قلبه وعقله عن خطورة ما يفعل، وتصم أذنيه عن حديثها الذي يبعثره الهواء المرتطم بوجهيهما.

يسخر من جُبنها، يريد أن يُخضع عقلها الذي دائمًا ما توليه دفه الحياة على النقيض منه، فدائمًا ما شعر بالتفاهة أمامها، حتى أقسم أن يكسر كبريائها بكل طريقة ممكنه.

تشتد أصابعه على بَكَرة السرعة، تتعالى مع صوت محرك الدراجة الصارخ ضحكاته الهستيرية كلما طلبت منه أن يخفف من سرعته لأجل أولادهم، فمن لهم إذا تسبب في مصرعهما بجنونه.

يشعر أنه يكرهها بقدر ما يعشقها، لا يستطيع السيطرة على رغبته في إيذائها، يرى صمودها أمام لطماته الموجهة لوجهها وجسدها التي تتلقاها ثابتة تنظر في عيونه صامتة، يشعر صمتها حين تسمعه وأمه يسبانها بما ليس فيها وكأنها تطعنه بخنجر مسموم.

شعر بصمتها هذا الذي يقتله، وتراخت يديها من حوله وتركت ملابسه التي كانت تتعلق بها خوفًا، استدار لينظر

وجهها بطرف عينيه ليرى دموعها تتطاير محمولة بفعل اندفاع الهواء، لا يدري أتبكي خوفًا أم بسبب ألمها من وخزات الهواء والأتربة التي تضرب وجهيهما.

زاد جنونه مع اقتراب سيارة مسرعة بجوارهما، يضرب سائقها أبواقها لينبهه، يشير له أن تمهل فزوجتك من خلفك تجاهد أن تسيطر على ملابسها التي تطير من حولها وتوشك على السقوط.

شعر بمدى حقارته حتى أنه لم يفكر في ستر زوجته، فما كان منه إلا أن قذف الرجل بسيل من الألفاظ البذيئة، فآثر الرجل الصمت خوفًا من تطاوله، وأسرع في طريقه متجاوزه غير مبال بهذا المجنون القذر.

رائحة الاحتكاك المقززة تتصاعد من الإطارات التي أوشكت على الانفجار، جعلتها تتمتم من خلفه بكل ما اسعفتها به ذاكرتها من آيات القرآن والدعاء، عسى أن يرحمهم الله من هذا الشيطان السادي.

لحظة من الألم شقت نعومة ساقيها، لم تدرك ما حدث إلا وهي تطير وترتطم بالأرض الأسفلتية بعد أن تمزق طرف ثوبها حين اشتبك بالأسلاك المعدنية في الإطار فجذبها لتهوى وتفقد وعيها.

أحس بيدها تجذب ملابسه بقوة للحظة، ثم ضربته برودة الهواء في الفراغ الذي احتل مكانها خلفه، نظر فزعًا ليراها وقد استقرت على بعد عشرات الأمتار خلفه ساكنة لا تتحرك.

ضغط بكل ما أوتي من قوة على ماسك الفرامل؛ ليحاول إيقاف هذا الصاروخ المنطلق وقد أصابته حالة من الهستيريا خوفًا من أن يكون قد فقدها، فرغم كل ما يفعل بها فهو يعشقها حد الجنون.

تشتت تركيزه بين الدراجة التي تأبى أن تخفف من سرعتها وكأن لها إرادة خاصة بها ضد إرادته، والنظر لهذه الملقاة

من خلفه تتباعد المسافة بينهما في كل لحظة تمر عشرات الأمتار.

أطياف سنوات عمره تمر أمامه كشريط سينمائي، يرى نفسه هذا الصغير المدلل، والشاب المستهتر الذي ما ترك منكرًا إلا وفعله مطمئنًا لوجود والدته التي ستحميه بكل الطرق المشروعة وغيرها، يحاول الصراخ بها لنجدته فلا يجدها.. يصرعه الهلع حين يسأل نفسه ولأول مرة في حياته، كيف النجاة الآن؟!

صوت رهيب يتعالى من حوله يسمع طنينه داخل عقله، ألم لا يدرى من أين يأتيه وكأن جسده يضرب بمطارق من حديد، أضواء مبهرة غشيت عيناه، برودة بطعم الجليد تحيط بجسده كالسوار.

يسمع من حوله صراخ يختلط بصوت أطفاله ينادونه من بعيد، يحاول الوقوف على قدميه كي يطمئنهم، يشعر بالفزع وهو يشعر بما يجذبه ليخرج من هذا

الجسد كالمعلق بكلاليب من حديد، يراهم من علٍ وقد أحضروا الكثير من أوراق الجرائد ليداروا بها سوءة جسده الملقى مشوة المعالم بين بقايا دراجته وسيارة النقل التي ارتطم بها.

ذلك الطائر خلف نافذتي
لا يكف عن النوح و الأنين ..
يأتيني مع شروق الشمس وغروبها
يحمل بين جنباته ألم مبين..
يصرخ من حر جمر يسكنه
يأجج بروحي شوقي والحنين..
أقسم عليه برب السماء صمتاً
يقاسمني أنه قدر خُط على الجبين..
لا حيلة فيه كما الموت إذا أتى
هو العشق إذا سكن الوتين..

٧
ليال

علم بالشجار الذي شب بينها وبين أمها منذ ساعات، فاتجه نحو مقابر الصدقة القريبة حيث دُفن والدها، يمشي في شوارعها الضيقة باحثًا عنها، فهو يعلم أنه مكانها المفضل للاختباء عندما تضيق بها دنياهم العجيبة.

هذه الجِنية التي تكاد تُذهب بعقله، تشرق كشمس أغسطس كل صباح لتصيب كل من يراها بملابسها المزركشة بكل الألوان الصارخة بالهذيان، مهرة جامحة تدق الأرض بقدميها العاريتين فتنبُت الأزهار على أثرها.

تعدو بين خيام الغجر التي تنتمي إليهم في خفة الفراشات، تصيح بالأطفال اللاهين هنا وهناك بين

قطعان الماشية تحثهم على مشاركتها جمع القطيع - الذي تركه أباها لها ولأمها من بعده- المنتشر لتسوقه أمامها ليرعى في الأراضي المنخفضة على ضفاف النيل القريبة الغنية بالأعشاب .

تشارك أهلها في زيهم لكنها تصر ألا يأسر جدائل شعرها المتموجة بلون حبات القهوة قيد، ليتطاير من خلفها كلما عَدَّت لتلحق بصغير من الماعز شرد عن القطيع لتعيده لأمه، فتتطاير من حولها القلوب ولهًا.
يصاحبه خيالها في بحثه بين المقابر التي لاذت بها مجددًا هربًا من جشع أمها وزوجها اللعين، فقد ابتلتها الحياة بأم لا تصبر على الحياة دون رجل، فبعد وفاة والدها ببضعه أيام لاح في أفقها هذا المحتال الذي يصغرها بعشر سنوات، والذي أوهمها بعشقه لها، وهو لا يراها إلا كالدجاجة التي تضع بيضًا ذهبيًا.

تراه في كل يوم يحبُك من حولها شباكه بمعسول الكلام فتعمى عيونها عن رؤية حقيقته القذرة، وتتغاضى عن

شكوى ابنتها الوحيدة التي تطالها نظراته وكلماته الخبيثة، وتتعلق في خيوط الوهم الواهنة بحجة أنه زوجها وحاميها، وحقٌ على ابنتها طاعته، تثور براكينها فخلف الأكمة تراه متربصًا يتحين الفرصة للغدر.

ترفض "ليال" حياة الغجر التي تشبه في ظلامها اسمها، فجل أوقاتها كد وصلف عيش، لا ينعم بالثراء إلا الصفوة، ولا يحظى بالراحة إلا ذوي النفوذ، وقد أيقنت منذ زمن طويل أن لا مهرب لها من هذه الحياة إلا باصطياد واحدًا من هؤلاء.

وكما يسكن موج البحر الثائر دومًا عيناها، تمتلك روحًا ثائرة تتمرد على الأعراف السائدة منذ مئات السنين، فالغجرية هي حطب الحياة لزوجها، تذوق مرارة الشقاء على الطرقات بقطيع ماشيتها ليستريح هو، تحلم أن تتنكر منهم يومًا حينما يقابلها هذا الذي يرضى بها دون أهل أو تاريخ، ويُرضي طموحاتها بأن تتحول إلى سندريلا التي تتزوج من الأمير بعد طول عناء.

تقتنص الفرص لتهرب من أسر هذا المجتمع الغريب الذي تزدريه رغم أنها قد تشبعت بالكثير من صفاته، فتراها في بعض لحظاتها هذه الغجرية التي تسرق الكحل من العيون، والنبض من القلوب، وفي الكثير من الأحايين تراها هذه الأميرة المتمردة التي لا يليق بها سوى سكنى القصور..

حين تسود غجريتها تراها تعود من جولاتها بجيوب ممتلئة بكل ما خف وزنه وغلى ثمنه، فهي لا تمانع في بعض اللهو مع من يُنتمون لأصحاب السلطان، وقد تقتنص الفرص لتحتفظ ببعض التذكارات من فرائسها - كما تحب أن تسميهم، فمن أراد بعض اللهو عليه ألا يعترض على ضريبتها التي ترضاها لقربهم منها..

يكاد يسحقها بيديّه العاريتين حين يسمعها تتغنى كيف دارت الدنيا بهذا أو ذاك وهي تعبث بأحلامهم في نيل مجرد لحظات في جنتها، يخشى عليها من جنونها ورعونتها، فقد تقتل الأحلام صاحبها، وهي تعلم علم

اليقين ألا ملاذ لها إلا واحدًا من بني جلدتها، وإلا دقت المسامير بكعوب أرجلها، فلا مفر منهم إلا إليهم.

يعشقها حد الثمالة، لكنها تغمض عيناها وتصم أذناها حين يجرؤ أن يطلب بعض ودها، تراه ابن خال تمنت لو لم تر أباه يومًا -وللأمانة لكم تمنى هو أيضًا ألا يكون ابنًا لهذا الأب- فأباه وأمها وجهان لعملة فاسدة واحدة..

يعجز عن كبح جماح أفكاره اللاهثة التي أعيت عقله، فما جدوى الحياة إن مشينا على خطى الأولين؟ ولما يتفنن الآباء في وأد أحلام أبنائهم ليزرعوا بدلًا عنها بذور أحلامهم الفاسدة؟

كيف تجتمع الذئاب والحملان في قطيع واحد تحت راية الكلاب!! وكيف للفراشات أن تُقذف في نار الموروث ويُطلب منها أن تُكمل تحليقها نحو الأفق!!

يراها من بعيد كما توقع حيث القبر الخالي من أي شاهد يُنبأ عن ساكنيه، فالغجر القادمون من كل بقاع الأرض لا وطن لهم ولا قبر يحمل اسمهم.

تتكئ على الحائط المجاور لفتحة القبر المغلقة بالحجارة، ثائرة جدائلها، يرسم كُحل عيناها على وجهها خطوطًا من ألم، مُبعثرة ألوان الحياة في ملابسها وكأنما خرجت للتو من معركة شتتت سلامها.

نظر إليها مصدومًا، تنطق عيونه بألف سؤال يخشى لسانه النطق بها، يتساءل عما جري ليجدها بهذه الحال العجيبة!

ترفع رأسها فتراه، وكأنما سمعت أفكاره فابتسمت من بين أمطار أحداقها، مدت يدها إلى جيب في جانب فستانها المزركش، لتخرج منه كف رجل ما زالت الدماء تقطر منها.. تراجع مصدومًا وهو يصيح:

- ماذا فعلت أيها المجنونة؟ يد من هذه؟

ترفع رأسها بشموخ، وتنظر في اتجاه الممر البعيد المقابل وتحدثه كأنما تحدث نفسها:

- لقد أخبرتها في الصباح أنه قد تجرأ على لمسي، فلم تصدقني، أو فلنقل فضلت مصلحتها ولم تُرد تصديقي، فجاء من خلفي ساعيًا للمزيد.. فأعطيته ما يستحق..

وكما تعلم فإنني أحب جمع التذكارات، وسأحتفظ بهذه للذكرى..

قالتها وهي ترفع يده زوج أمها أمام وجهه وتبدأ في ضحك هستيري..

وأخيرًا
قررت كسر مجاديف قلبي المجاهد
في سبيل الحياة
سأرفع مرساتي..
أحطم دفتي..
وأترك نفسي في مهب ريحها
تحملني كيف شاءت ومتى تشاء..

٨
ستة أشهر

التاسعة صباح الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، أقف أمام أبواب العمارة التي يمتلكها أبي، أخطو خطوة لأتراجع خطوات لا أعرف كيف سأنظر في وجهه بعدما فعلت وأخي!!

سنوات مرت من أعمارنا دفعنا خلالها ضريبة زواج النار بالماء، حياة مليئة بالغليان لا يهدأ لها حال، أخشى أن أحكم اليوم على ما كان بأنه التجسد الحرفي لقهر الرجال كما علمت منذ سنوات حين رأيت الانكسار في عين والدي وهو يحمل أحلامه في بناء أسرة مستقرة وما تبقى من كرامته ويرحل تاركًا إيانا في رعاية أمي.

أمي.. هذه التي لا تهدأ شياطينها ولا يؤلمها إلا ضياع رغبة لها دون تحقق، التي عاشت الدلال في بيت أهلها، تأمر لتُطاع، مهما كانت رغباتها فهي طوع بنانها، حتى هذا الذي امتلكت حياته بوهم الحب فعاش عمرًا يُكفر عن أوهامه.

أبي.. هذا الهادئ المسالم طيب الروح واللسان، عاش العُمر قبلها لأمه وأخواته اليتيمات، جد في عمله فكانت ثمار اجتهاده كالشجرة الطيبة التي أتت أُكلها بركة ورزق وفير بعد أن اطمئن على استقرار أخواته البنات في بيوت أزواج يخافون الله فيهن، قرر أن يبدأ الاهتمام بحياته، لكنه دون أن يدري بدأ اختباره في الحياة يوم أحبها.. خالها الشمس التي أشرقت على وحدته لتبث بين ربوعها الدفء، فجاءته جحيمًا لا فرار منه.

عشر سنوات قضاها ينحت في صخور قلبها بأنامل العطاء عساه يرقق حدتها، تُشعل نيران رجولته بصوتها الصاخب فيجاهد أن يطفأ نيرانها بهدوء وذكر وشكر على

ما أنعم الله به من الذرية من البنات والبنين.. أخي الأكبر وأنا..

أخي أحمد.. هذا الذي لم يحمد الله على خير قط، وعاش الحياة متمردًا ناقمًا -أراه بعين ذاكرتي مذ كنت طفلة صغيرة مجعدة الشعر كما يحب أن يناديني- هذه النسخة المصغرة من أمي قلبًا وقالبًا، وكأنما قُد من نفس الصخرة التي سبقته ونُحت من صلبها قلب هذه الأم الجسور.

يشبه تفاصيلها الأنثوية، بعيونه الضيقة وحاجباه المرسومان كحاجبي عروس، وهذه الضحكة المستفز التي لا تليق بالرجال، ويشبهها أكثر في نارهما التي لا تنطفئ إلا وقد استولت على الأخضر واليابس.

نال من الحب أضعاف ما أصابني، فأنا شبيهه أباها في الشكل واللون والتفاصيل التي تُذكرها بجذورنا التي تمتد إلى واحدة من قرى الصعيد -فأنا وعلى النقيض من أخي-

قد ورثت البشرة القمحية والملامح الخشنة والعيون السوداء الحادة النظرات والذكاء من أهلي لأبي، ولم أرث من أهل أمي ساكني الشواطئ إلا عشقي للبحر والجلوس على شاطئه كلما سمحت لي الظروف.

حرصت أمي منذ طفولتنا على قطع كل علاقة بيننا وبين أهلنا، فلم نزُر جدتي إلا مرات معدودات حتى توفاها الله، أما عن عماتنا اللاتي تزوجن في بلدة أبي ومسقط رأسه في الصعيد فلا أتذكر تفاصيل ملامحهن أو أعلم عن أولادهن شيئًا، في حين أعطت كل الحق لأخوالي وأولادهم بالزيارات في أي وقت يشاءون، فحرمت دوح أبي على أهليه وأحلته لكل من راق لها سواهم.

أبي وأمي.. عشر سنوات هي عمر حياتهما معًا، شهدت فيها ما جعلني أقر أن الحب وحده لا يكفي، وأن الجنة التي لا تأنس فيها برفيق يشبهك في كل تفاصيلك لهي الجحيم المستعر، والأهم أني قد تعلمت أن الصبر مهما كال أمده فلابد له من نهاية لا مناص.

وجاءت النهاية يوم مرض أبي لبضعه أسابيع احتاج فيها لرعاية زوجته المصون أمي، فلم تتحمل ألمه الذي لم تنطق به سوى عينيه مخافة أن يُظهر ضعفه لمن لا تصونه، لتأتيه كلماتها -حين أصرت على الذهاب لزيارة أهلها والاسترخاء على الشاطئ بصحبتهم في أوج ألمه ومعاناته- أنه أصبح عبءً عليها لن تتحمل عجزه وإن كان مؤقتًا.. ليخرج بعدها أبي من المنزل بلا عودة.

سنوات عشر أُخر مرت بعد رحيل أبي واستقلاله بحياته في منزل آخر، لم يدخر جهدًا ولا مالًا لإسعادنا، لم نحتَج إليه في يوم من الأيام إلا ولبى حاجتنا دون نداء، سنوات على قدر ما قربتني من أبي رغم بعد المسافة، أبعدتني عن أمي رغم كوننا نسكن تحت سقف واحد..

كرهت الكثير من أوقاتي معهما، فقد كنت الدخيلة على حياتهما المتناسقة، مطالبة دائمًا بإثبات ولائي وإلا فأنا شبيهه أبي وجاسوسته في المنزل، لكم سخروا من كل

قسم أني بريئة مما يظنون، لكن جاء طلبهم لإثبات ولائي ليكون وصمة العار في حياتي وسبب وقوفي ها هنا..

منذ ستة شهور مرت.. حدثنا أبي عن نيته في بيع جزء من العمارة التي يملكها ويسكن واحدة من شققها، وعد أخي بشقة رائعة يوم يقرر الزواج، ووعدني بمثلها فلا فرق بيننا عنده، أما عن باقي الشقق فلا حاجة له بها لذا قرر بيعها ليأمن لنفسه حياةً كريمة بعد أن عاوده المرض.

نوبات من جنون أمطرت بيتنا البارد دومًا، فأمي لازالت تحيا على أمل أن يموت أبي ونرث أمواله لتكون تحت تصرفها، وتكون هي الوارث الحق تنكيلًا به وبذكراه، أوحت إلى أخي أن يحاول أن يثنيه عن عزمه، وعندما أصر.. كانت فكرتها الشيطانية أن نسرق أبانا..

في زيارتنا الأخيرة منذ ستة أشهر كاملة، أخبرنا والدنا أنه قد أتم البيع، وجاءه المشتري بالأموال كاملةً، فكان اقتراح

أخي أن نبيت ليلتنا عنده حدث غير اعتيادي، جعل القلق يستحوذ على روحي، وقد كان..

فقد كانت الخطة أن نستولي على أموال أبي ونهرب إلى أمي في الصباح، فهي أموالنا ونحن أحق بها من هذا العجوز المريض الذي سينفقها على مرضه بلا طائلٍ على حد وصفها، وجاء التنفيذ بيد أخي وإن كنت قد ساعدته مجبرة حتى ولو كان بالصمت المُهين..

ستة أشهر مرت لم يعاتبنا أبي حتى بعد أن اتصلت به هذه المسماة بأمي لتبث سمها بقلبه وتخبره أنها قد ورثته وما زال على قيد الحياة، ولم يفلح في حرمانها من أمواله التي استولت عليها بفضل أولادها الذين فضلوها عن صحبته المقيتة.

ستة أشهر لم أسمع فيها صوت أبي ولم أعلم عن أحواله شيئًا، وإلا فأنا الخائنة التي ستطرد من جنة أمي وأخي.

ستة أشهر تجلدني سياط الندم، لا أعلم بأي وجه سألقى هذا الحنون الذي لم يبكيني يومًا إلا فرحًا!! فأتيت اليوم لأبكي أمامه ندمًا عساه يغفر لي ضعفي وذلتي..

أقف على باب المنزل ترتعش قدماي خوفًا ألا يقبل أعذاري الواهية، تمطر عيناي دموعها قهرًا لكنه لا يكفي لإخفاء نيران ما أشعر به من خزي.

تنتشلني من أفكاري أصوات صخب تأتي من الأعلى، طرقات عنيفة تتبعها صرخة مدوية هوى قلبي على إثرها في جوف جُب حالك الظلام، تتقاذفه الهواجس كالسباع الضاريات.

أصعد درجات السلم عدوًا، لا أعلم كم مرة قد سقطت فيها لأقوم فأكمل الصعود، لتتجسد مخاوفي أمام باب شقة أبي المهشم، وحشد من الجيران يقف بين مصدوم وباكٍ.. فها هو أبي يتمدد هناك على الأريكة، طويل الذقن، أشعث الشعر، ناحل الجسد، مفارقًا للحياة..

أنظر إلى حاله وأصرخ لم العجلة فقد جئتك نادمة!
أسمع من بين الهمسات أنه لم يخرج من شقته منذ ستة أشهر كاملة رافضًا كل تواصل مع أي إنسان، ستة أشهر كاملة فرض على نفسه الحياة كالأموات بعد أن أرديته وأخي غدرًا وبكل دمٍ بارد..

ليت القلوب لمن نشاء نُسكنها
لكنها رغمًا تعشق من سباها..
قد نشرب المر كأسًا لا ينتهي أبدًا
ونعود كالطفل لا يرضى عداها..

٩
الشيخة صفي

أجلس في صالة بيت الخالة القديم مع بناتها، أنظر للأبواب العتيقة، والنوافذ العملاقة التي يصعب عليّ فتحها، أنظر الأختان – خالتي وأمي- تقتربان وكأن نجواهما سرٌ حربي لا يجب علي أي منا سماعة.

تنتظران خروج زوج الخالة الطيب، بعد تناوله للغداء في وقت مُبكر كما اعتاد أيام الجمعة، ليذهب في زيارة لبيت أمه ويجتمع بأخوته وأولادهم، حاملًا لأمه وللأطفال بعض من أكياس الفاكهة أو علب الحلوى كيفما يتفق ورزقه.

دخلت الخالة إلى غرفة الضيوف البسيطة -بعد خروج زوجها- تُعدل من وضعها، ترتب الكنب العربي المِنجد

بشِلت من القطن، صناعة الريف الأصيلة، وتنظف الكليم السيناوي النقوش المفروش أرضًا، وتوزع عليه بعض الشلت المستديرة الصغيرة.

تسأل أمي عن الساعة كل دقيقتان، وكأنهما على موعد مع مجهول يثير مخاوفهما، وبعد السؤال للمرة العاشرة، يدق الباب فتسرع الخالة نحونا، تطلب منا الدخول إلى غرفة البنات وتغلق الباب من خلفنا، وتنبه ألا تخرج واحدة منا منها دون إذن وإلا فمصيرها العقاب الشديد.

جلست ساهمة وقد شغلني أمرهما، فلم أستطع التركيز في الفيلم العربي القديم الذي وقع اختيار بنات خالتي عليه لنشاهده، ولم ألحظ كيف أن البطلة قد عشقها عفريت من الجن وأخذ في مطاردتها، وقد حول حياتها لجحيم، وإلا كنت قد أسرعت بالفرار، فأنا أخشى ظلي إذا لاحقني وأنا أمشي وحدي.

خمس دقائق أخرى مَرَّت، لتدخل أمي تناديني وتنتشلني من أفكاري الطفولية، تخرج بي من باب الغرفة الضخم وتغلقه من خلفنا وهي تُسكت تساؤلات البنتين الأخرتان وهما تتعجبان " اشمعنى هي ال تخرج بره وإحنا لا؟"

دخلت وأمي إلى غرفة الضيوف، لأجد هذه الزائرة الغريبة، تجلس على الأرض، تنظر في الفراغ بعيون ضاع بريقها وتحول سوادها إلى بياض مخيف، ترتعش يديّ وأمي تُجبرني أن أُسلم على الخالة صفية الطيبة، لألمس يدها ثم أحاول أن أجذب يدي منها بسرعة خاطفة، لتشدد المرأة قبضتها على يدي حتى تشتتت نبضات قلبي دون أن أعلم لذلك سببًا؟

لسعات من نار تسري بجسدي من أثر لمس المرأة ليدي، أحاول جذبها والفرار بعيدًا، لكن المرأة جذبتني وأجلستني بقربها، فلم أستطع إلا الإذعان، خاصة تحت نظرات والدتي الآمرة بالطاعة.

تبدأ صفية حديثها ليخرج صوتها رجوليًا عميقًا لا يتناسب وتفاصيل جسدها وكونها أنثى مكتملة المعالم، يقشعر بدني وأوزع نظراتي المشتتة بين النساء الثلاث، لا أعلم ما يجب عليّ فعله لأتمكن من الفرار.

تتحدث الخالة التي تحمل بيدها قطعة من ملابس رجالية باللون الأبيض، تناولها للمرأة الضريرة وهي تتمتم:

- طلباتك يا سيدنا.. أأمر لتطاع يا شيخ صفي..

تبتسم المرأة وتنظر نحوي، أشعر بنظراتها تخترق عقلي وروحي، وتعلم ما يجول بخاطري، تلتفت ثانيةً لأمي وتحدثها:

- معاكي كنز ولا تعرفي قيمته يا مخبولة..

تتوتر أمي ولا تستطيع الرد، فهي لا تعلم عن أي كنز تتحدث هذه أو للدقة هذا الذي لا تود أن تنطق باسمه.

تمتد يد المرأة الضريرة لتلمس كف يدي، وكأنها تستكشف خريطة رسمتها الأقدار داخلها، تتسع

ابتسامتها، وتلمع عيناها الفاقدة للحياة بنار زرقاء مخيفة لم تلحظها أي من المرأتان الواقفتان ترتعشان.

تنتقل يد الشيخة صفي إلى رأسي تتلمسها، تتمتم بصوت غير مسموع ما يجعل جسدي يرتعش، تلتفت إلى فجأة قائلةً:

- حافظة آية الكرسي ولا لا؟

أومأ برأسي أكاد أقسم لها أن نعم أحفظها عن ظهر قلب، لكني أبحث عن كلمات الآية فلا أجد بعقلي سوى الفراغ، أين اختفت الكلمات التي ألوذ بها دومًا كلما أحسست بالخطر!

تبتسم وكأنها تقرأ أفكاري، تعلم مخاوفي ودرعي المحجوب رغُمًا عني، أغوص في فراغ حدقتيها، لأرى عالمًا من ألوان تتجسد داخلها تكاد تُذهب بعقلي، تحدث الخالة دون أن تبعد عيناها عني:

- بعتالي ليه يا أم البنات؟ طلباتك؟

لتردد الخالة من خلفها:

- أم البنات.. هي دي مصيبتي، معرفتش أخلف له الولد، كل أخواته عندهم الولد بلا مال، وهو عنده المال بلا ولد، أمه عاوزاه يتجوز واحدة غيري تجيب له الوريث للأطيان والمال، وأنا عوزاه ليا لوحدي..

قهقهت الضريرة بصوتها الأجش، وأخذت تهذي:

- طول عمره ابن آدم ما يملى عينه إلا التراب، قاله المال والبنون زينه، والباقيات خير وأبقى، ترك الخير وضيع العمر يلهث خلف التراب.

مسحت وجهها بالفانلة البيضاء لزوج الخالة، تتشمم رائحة عرقه التي لم تُغسل منها بعد، تطلب مقصًا، وتبدأ في قص قطعًا صغيرة منها، وبقلم بلون الدم تنقش على كل قطعة خربشات لا علم لنا بمعانيها، تطبق عليها كفها وتنفس بعضًا من روحها فيها لتسكنها.

انتهت مما تفعل بعد أن لفت القصاصات حول بعضها لتصنع منها شكلًا مثلثًا، ثم وضعته في كيس بلاستيكية، وبدأت تخيط أطرافها وهي تنظرني أنا لا ما بيدها، دون

أن يرف لها جفن، انتهت مما تفعل وأنا قد أوشكت على فقدان وعيي من هول ما أشعر، مدت يدها للخالة بما تحوي، تخبرها أين تضعها وماذا تفعل بعدها.

ارتسمت ابتسامة المنتصر على وجه الخالة، فقد حققت مبتغاها، وظنت أن الولد آتيها لا محالة، وزين لها الشيطان سوء عملها، فلم تلق بالًا إلا لأطماعها وأحلامها حتى ولو خسرت آخرتها.

همت أمي التي هربت الدماء من عروقها حتى ابيضت أناملها أن تجذبني من بين براثن السيدة التي ما زلت أجلس بجانبها، لتنهرها صارخةً بصوت يشيب له الولدان " اتركيها".
هدأت نبرة صوتها وهي تحدثني وقد قبضت بيدها على كفي:
- مستعجلة ليه!! بصي على اللوحة المتعلقة هناك على الحيط وإقرأي لي منها آية الكرسي..

نظرت للأعلى.. أتساءل وقد ارتعدت كل خلية في جسدي خوفًا، كيف لم أر اللوحة الضخمة وأنا المبصرة ورأتها الضريرة وعلمت أين هي وما كتب عليها؟

شدت على يدي تنتشلني من أفكاري، أرفع عيناي وأقرأ الآية كلمة كلمة، وكأنني أقرأها للمرة الأولى بحياتي، أشعر مع كل حرف منها بخدر يسري في عقلي، ووخزات من نار تلسع جسدي كله، أشعر بالدوار لا أدري لم؟ أشعر أنني أريد النوم الآن.. يسود الظلام من حولي.

أفتح عيناي لأجدني أنام على سرير في بيت الخالة وقد رحلت الضريرة، أشعر أني بحال أفضل، لكنني أشعر بشيء عجيب، فمنذ فتحت عيناي وأنا أرى الحياة وقد تبدلت ألوانها، أسمع من حولي همسات بلغة غريبة لم أسمعها من قبل قط، لكن وللعجب فأنا أفهم ما يُقال، إنه يحدثني أن مرحبًا بالغالية، لقد بحثت عنك لسنوات طويلة..

أنادي أمي التي تأتي مسرعة من الخارج، أنظر إليها مبتسمة، وأمد يدي إليها لأطمئنها أنني بخير حال، لتصعقني نظرة الصدمة على وجهها وصوت صرخاتها يرتفع وهي تقول:

- ابيضت عيناها.. ابيضت عينا ابنتي، لقد رحلت الضريرة وتركت لنا صفي، لقد رحلت ببصرها وبقى هو ليستولي على جسد ابنتي..

كُتب على جدران الحياة
في الأساطير القديمة
أن العشق لعنات..
آلامه تورد القلوب الممات
ومعه السعادة أمنيات..
نبحث عنها تائهين
في دروب من الخيبات..

١٠
سبع الرجال

سقطت دمعة هاربة من عينيها على حين غفلة، مدت يدها سريعًا لتمحو أثرها قبل أن ينتبه لها أولادها، فلا قدرة لها على احتمال نظرات الشفقة ممن حولها، حتى ولو كانوا جزءً منها.

تتبدل تعبيرات وجهها بين الابتسام والعبوس والخوف وهي تسترجع الساعات الماضية والتي قضتها بطريقة استثنائية لم تفعلها منذ سنوات.

جلست تنظر إلى الفاتنات داخل مركز التجميل الباهظ الثمن الذي قررت أن تدخله للمرة الأولى منذ سنوات نسيت فيها كونها أنثى تحتاج في بعض الأحيان إلى تدليل نفسها.

تنظر يديها التي طالها الإهمال حتى أضحت أشبه بيد العجائز، وتقارنها بيد من تجلس في الشيزلونج المقابل لها فاردة ذراعها لتعتني بهما فتاة التجميل، في حين تمسك النسخة الأحدث من الآيفون بيدها الأخرى تحكى لشخص ما كيف كانت رحلتها التسوقية الأخيرة لدبي قمة في الإرهاق لها..

ترتسم على شفتيها ضحكة ساخرة مريرة وهي تتذكر حجم المعاناة التي تعرضت لها وأولادها حين قررت أن تشتري لهم بعض الملابس الشتوية الشهر الماضي، وأجبرتها الظروف المالية المتردية في ظل هذا الغلاء الفاحش أن تحارب لتدخل واحدًا من المحلات التي أعلنت عن عروض الجمعة البيضاء.. لقد شنت من أجلها حربًا ضروسًا بحق.

تجول ببصرها هنا وهناك وكأنها آليس وقد سقطت في مدخل بلاد العجائب، متعجبةً مما فاتها في السنوات الأخيرة، تنظر من تدخل بحال وتخرج كأنها كلمات متقطعة أعيدت صياغتها لتكون قصة جميلة، تشعر

وكأنما قد تلبستها روح الخادمة وسط قصر الأميرات، تُجري داخلها مقارنة سريعة بين ما هن عليه وما آل إليه حالها.

تتذكر منذ سنوات قبل أن تتزوج كيف كانت أميرة مدللة في بيت أبيها قبل أن تجبره على قبول من أحبت زوجًا رغم رفضه له، تشعر بغصة في قلبها تعتصره، فما اعتبرته تضحيات من أجل حبها في البداية ثم بيتها وزوجها فيما بعد، لم تجد له مقابلًا إلا التقليل من شأنها، تدمع عيناها حين تتذكر كلمته " لولايا كان زمانك في بيت أبوكي مش لاقيته ال يتجوزك" كانت تضحك ساخرة من نرجسيته، حتى زلزل جدران قلبها بكلماته التي ما زال صداها يتردد في أذنها، "ألم تنظري مؤخرًا في مرآتك يا من أصبحت خيال امرأة؟!"

لم يشفع لها عنده أنها تحملت رغم كل الصعاب، حتى أصبحت تقوم بدوره كرب للأسرة في حين نفض هو مسؤوليتهم عن كتفيه، ليعيش هو الرفاهية، وتدهسها هي عجلات الهموم.

لم يشفع لها تحملها مسئولية أمه التي ألقاها هي الأخرى على عاتقها، لتكون شوكة أخرى في خاصرتها، فمهما أكرمتها لا تكف عن الشكوى والتذمر، ولا تفارق شفتيها جملة "كله من خير إبني إنتي مش بتجيبي من بيت أهلك".

كم أوهمت نفسها أنها على صواب، فصورة بيتها وأولادها وزوجها هي الأهم، حتى ولو تنازلت عن أبسط حقوقها كإنسانة، كثيرًا ما تساءلت ماذا سيحدث إذا تغاضيت عن احتياجاتي في سبيل إسعادهم؟؟ بالتأكيد سيقدرون تضحياتي..

واليوم هاهي قد علمت ما قد حدث عندما اكتشفت أنه يخونها، والأدهى أن حجته كانت حاضرة، سؤال واحد هشم كل تماثيل المثالية التي عكفت على صنعها طوال السنوات الماضية..

ألم تنظري في مرآتك مؤخرًا يا من أصبحت شبح امرأة؟

كان الأولى به أن يسأل نفسه قبل أن يسألها، ألم تنظر في مرآتك منذ سنوات يا من أصبحت شبح رجل؟
كيف اضطرت زوجتك للنزول إلى سوق العمل لتحمي أولادها من حياة العوز والفاقة، كيف ألقيت بكل مسئولياتك على كاهلها حتى ناءت بحمل تنوء به الجبال..

ألم يسأل نفسه يومًا من أين تُكمل شهرها بما يُلقى لها من فتات؟ ألم يشغل فكره بأن يقارن بين ما يساهم به في بيته وبين ما يجده من رفاهية العيش؟ أيُسمى رجلًا من لا يعلم من أين يأكل ويلبس ويعيش أولاده وزوجته؟

نظرت في حقيبة يدها لمرتبها في شهر كامل، ما كان سيؤول مصيره لفواتير الكهرباء والغاز والمياة ودروس الأولاد، وما يتبقى منه تكمل به شهرها إلى جانب ما يعطيه لها زوجها الكريم الذي يقتطع لنفسه ما يقرب من ثلث مرتبه.. حان الوقت الآن لتستخدم هذا الراتب في شيء نافع..

طلبت من الفتاة الجميلة التي وقفت تنظر إليها بفضول وسألتها عما تريد من خدماتهم أن تفعل كل ما بوسعها لتحولها لامرأة جميلة، فاليوم لديها مناسبة خاصة ومصيرية حقًا..

مرت أربع ساعات كاملة نظرت بعدها في المرآة تتأمل مظهرها الجديد، لتتساءل من هذه التي أراها؟ لقد صدق حقًا من قال أن كل النساء جميلات لكن تحتاج كل واحدة منهن أن تبحث عما يميزها من جمال خاص بها لتُظهره.

وصلت إلى منزلها قبل عودة زوجها وأولادها بساعة واحدة، تحمل بيدها وجبة عائلية من الطعام، اشترتها وهي في طريقها للمنزل، فقد أنفقت معظم راتبها على نفسها في مركز التجميل حتى تقوم بواجبها كزوجة وتعود أنثى جميلة مرة أخرى، ولا يليق الوقوف في المطبخ بطلاء أظافرها الجميل -على الأقل لليوم فقط.

دخلت لتجد حماتها تجلس أمام التلفاز وقد وضعت أطباق التسالي أمامها، وانتشرت قشور اللب والسوداني هنا وهناك، لتقف المرأة العجوز تنظر إليها بذهول، وتقول وهي تمصمص شفتيها المجعدتين "صدق من قال لبس البوصة تبقى عروسة" فنظرت إليها مع ضحكة باردة وهي تقول لها "صدقت يا أم الغالي".

دخلت غرفتها وبدلت ملابسها، لتخرج وتجلس في انتظار أولادها، أضحكتها ردات فعلهم المتفاجئة عندما وصولوا إلى المنزل، فقد كانت خليط بين الدهشة والإعجاب والفرحة، خاصة وأنها لم تنسهم ببعض الهدايا البسيطة..

فتح باب شقته ليسمع ضحكات مرحة تأتيه من غرفة المعيشة، دخل يبحث عن أولاده ليراها تلعب معهم فرحة، نظر إليها بصدمة للوهلة الأولى فقد ذكره مظهرها الجديد بوقت خطبتهما منذ سنوات حين خطفت قلبه فأسرع للفوز بها زوجة.

أسرع أولاده للترحيب به بسعادة، كل واحد منهم يتسابق ليحدثه عما فعلت الماما وكيف أصبحت جميلة، كيف تحول شعرها لشلال من الشيكولاته حلو الرائحة والمنظر، وهذا اللون الذي تستخدمه لأظافرها والذي يشبه هذا الذي تطلي به شفتاها.

ينظر إليها ولا يكاد يستوعب أحاديث صغاره، حتى أنه ظل متجمدًا دون حراك عندما تحركت نحوه لتهديه قُبلة على خده الأيمن وتهمس له أنها اشتاقته كثيرًا..

خرجت أمه من غرفتها حين سمعت صوته، ليتبادلوا النظرات الحانقة، فهي لم تستوعب ما يحدث، وتنتظر ابنها لتبدأ الوسوسة له.

التفت إلى زوجته يسألها: ما هذا؟

ردت عليه بابتسامه رائعة وهي تخبره عن يومها وكيف ذهبت إلى صالون التجميل واهتمت بنفسها كي تنال رضاه، فقد اقتنعت بكلماته واعترفت أنه على حق، فقد أهملت مظهرها حتى نسيت أنها امرأة جميلة وزوجة لرجل من حقه عليها أن يراها في أحسن حال.

قطع حديثها سائلًا:

- ومتى خرجت من عملك لتفعلي كل هذا؟ نظرت إلى وجهه باهتمام لترى رده فعله على ما ستقول..

- لقد ذهبت لعملي لمدة ساعة واحدة في الصباح، تقدمت للإدارة بطلب إجازة، وقد تمت الموافقة عليها، ومن الآن فأنا متفرغة لك ولبيتنا وأولادنا، لن يشغلني عنكم شيء أبدًا.

أصفر وجهه وتحولت نظراته إلى الجنون شيئًا فشيء، وهو يصرخ بها:

- اي إجازة تتحدثين عنها؟؟! من سمح لك بهذا؟ سيتم اقتطاع هذه الأيام من راتبك، كيف تجرؤين!!

بادلته النظرة بأخرى أرق وأهدأ، لتجيبه:

- لا تقلق حبيبي، هي بضعة أيام فقط أعوضك عن إهمالي في حقك، ثم أعود مرة أخرى لعملي.

أنظر ماذا أحضرت لك..

نظر إلى يدها التي تحمل زجاجة من عطر فاخر تعرف أنه يحبها.

يرن جرس هاتفه، يظهر اسم المتصل ليصفر وجهه، فقد أنسته المفاجأة أن يحول الهاتف إلى وضع الطيران كما اعتاد مؤخرًا، رفض المكالمة، وأغلق الهاتف وهو يمد يده ويقبل منها زجاجة العطر مبتسمًا كي لا تشك في أمره.

ذهبت إلى المطبخ.. جهزت وجبة الغداء الفاخرة التي اشترتها، وخرجت إليه وأمه حيث جلسا يتحدثان بصوت هامس، وضعت الطعام على الطاولة وأخبرتهما أنها على وشك الخرج مع الأولاد للتمرين فقد تناولوا طعامهم في وقت سابق..

نادت أولادها ليسلموا على أبيهم، واصطحبتهم خارجة وعلى وجهها ابتسامة عريضة وهي ترى زوجها وأمه وقد بدأوا بالفعل في تناول الطعام، لتغلق الباب من خلفها

وابتسامتها تتسع أكثر وأكثر وهي تتمتم من بين أسنانها..
مطرح ما يسري.. يهري.

تباً لقطار يتسابق مع دقات الساعات
تتعالى صرخاته في ليل لم يُسمع فيه سوى أنفاسنا اللاهثة
تطارد سراب الممكن واللامعقول بلا استسلام
لتصطدم بصخور الواقع البارزة الأنياب
فنعود أدراجنا بقميص ممزق
يتخضب بنزف زهرات اغتالتها الأشباح والأوهام..

١١
صخرة لثلاث رجال

يجلس برفقة صاحبيه عند بقعة معزولة على شاطئ البحر - هذا الفرع من النيل الذي يفصل بين بلدته شرقًا وبين بلدات أخرى على شاطئه الغربي – يُلقي سلة من الخوص مربوطة بحبل طويل من أعلاها إلى المياة القريبة من الشاطئ؛ عله يحظى ببعض الأسماك فيشويها هو وصاحباه فتكون وجبة خفيفة لهم.

يُمسك بعصًا طويلة من الخيزران يهش بها على غنمه، ينظر إلى قطيعه الصغير الذي أخذ ينتشر ليرعى هنا وهناك بعين الرضا.

يناديه بركات – صاحبه المُقرب وشريكه في عمله هذا - ليشرب كوبًا من الشاي المصنوع على "راكية النار"

والذي صنعها باستخدام بعض قوالب الطوب الأسمنتي المرصوصة جنبًا إلى جنب لتكون دائرة منعزلة عما يحيط بها.

يُغذي النار بالمزيد من الحطب الجاف، لتكون مصدرًا للضوء في الليل في هذه المنطقة غير المأهولة والتي لم تصلها إمدادات الكهرباء بعد، وفي النهار يُستخدم هذا الحطب في صُنع أجمل شاي وفي بعض الأحيان في شوي السمك الذي يجود به هذا النيل العظيم حين رضاه.

ينظر إلى شجرة الجميز العتيقة التي تقف شامخةً على حدود قطعة الأرض التي اتخذها مرعًى لقطيعه منذ عدة أيام مضت – نظرة خاطفة، يراها تُدلي بأغصانها نحو الماء في مهابة وتصنع من حولها ظلالًا تجعل بدنه يقشعر.

يحاول أن يتناسى هذه الأحداث الغريبة التي تؤرق نومهم منذ حطت أقدامهم هذه الأرض الغريبة منذ أول ليلة حين أغلقوا الأسيجة من حول الأغنام وخلدوا للنوم

بالقرب منها، في هدوء الليل الذي لا يشوبه همس – إلا صوت تحرك أوراق الأشجار وخرير الماء المنساب على بُعد أمتار في الجهة الأخرى – لم تمض سوى دقائق معدودة حتى وجدوا دعامات الأسيجة وقد خُلعت من أماكنها، لتفيق كلاب الحراسة في هياج لا يُبشر بخير.

جاء قرارهم بالإجماع في اليوم التالي أن لابد لنا من الانتباه، لعل بعض اللصوص يحاولون الاستيلاء على ماشيتنا، فلنقسم أنفسنا لورديات في الليل، ليحرسوا المكان كل واحد منهم لساعتين، حتى تنقضي الست ساعات منذ منتصف الليل وحتى الشروق..

في الليلة الأولى كانت ورديته، محمد.. نام صاحباه وتركوه يجلس أمام راكية النار يصنع بعض الشاي لزوم السهرة، قام يمشي هنا وهناك يطمئن على الأسيجة، ثم عاد ليجلس بالقرب من النار.

حين أبصرها، رآها كالظل تقف تحت أغصان شجرة الجميز، ممشوقة القوام طويلة الشعر تلبس السواد، تشير إليه بيديها أن ارحل، وعلى وجهها نظرة غاضبة، أصابته الدهشة لمرأى امرأة جميلة مثلها في هذا المكان المُقفر في مثل هذا الوقت.

تساؤلات عدة تسارعت بعقله، من هذه؟ وكيف وصلت إلى هذا المكان دون أن ينتبه لها؟ ولم هي غاضبة منه وتطلب منه الرحيل في حين أنه من وجب عليه الغضب وطردها بعيدًا؟!

عاد يرمقها بحذر، فلعلها تعمل مع العصابة التي حاولت سرقة الخراف في الليلة الماضية وتحاول إلهاءه،
ناداها أن من أنتِ يا امرأة، ليخرج صوته مخنوقًا مكتومًا ولم يدرِ أكان ذلك حقيقة أم لعله يتخيل هذا..

أصابه الرعب، فقرر أن يوقظ أصحابه في الحال، أسرع إليهما يهزهما بعنف فقاما فزعين، يتساءلان ماذا هناك، يشير بيده نحو الشجرة ويخبرهما بأمر المرأة التي تقف هناك، ينظرون جميعًا لكن لا شيء إلا ظلال الشجرة على الأرض التي يصنعها ضوء القمر.

اعتقد أصحابه أنه قد سقط في غفوة، وأن ما رآه ليس إلا كابوسًا عاشه بسبب قلقه على الأغنام، فمن يصدق أن تأتي امرأة جميلة كالتي يصفها لمثل هذا المكان المقفر في هذا الوقت!

حاول أن يجادلهم وينفي أنه قد غفا، فحمل بركات الكلوب بعد أن أشعله ورفعه لأعلى، وقام يمشي أمامه حتى وصلا لأقرب نقطة من الشجرة العتيقة، وأخذ ينادي:

- أين أنت يا امرأة؟ فلتظهري ولك الأمان.

ليشاركه وصديقهم الثالث الضحك، وهو يحاول أن يغالب ظنونه ويقنع نفسه أنها كانت مجرد أوهام.

وقفوا يجمعون بعض الحطب والعصي الجافة حتى يشعلوا المزيد من النار، فمن الواضح أنه لا نوم هذه الليلة، وللمرة الثانية على التوالي يقضون الليلة قلق بلا نوم.

اتفقوا على أن يبحثوا منذ الصباح على مكان آخر ليخيموا فيه ويرعوا أغنامهم بعد أن بدأت الشكوك تتلاعب بعقولهم وقلوبهم حتى ولو أنكروا بألسنتهم.

عاد محمد إلى بيته في الصباح مرهقًا، فقد ظل الليل كله يتربص لها، ينتظر علها تظهر مرة أخرى فيمسك بها ويثبت لأصحابه أنه لم يكن يهذي.

دخل إلى سريره بعدما تناول الإفطار اللذيذ الذي أحضرته له أمه، وطلب منها أن توقظه بعد صلاة الظهر ليسأل في الجوار عن أرض قريبة تصلح للرعي مثلما اتفق مع صاحبيه.

وقفت المرأة تنظر إليه بغضب أشد، ترفع يدها في وجهه بتهديد واضح وهي تشير له أن ارحل من هنا، فهذا التحذير الأخير لك ولصاحبيك، هذه أرضنا ولا نسمح لغريب بسكناها، فلترحلوا قبل الندم.

حاول أن يمد يده إليها ليقبض على معصمها الممتد أمام عينيه، لكنها تلاشت وكأنها الدخان في يوم عاصف، قام لاهثًا ليجد جدته لأبيه تقف على بُعد خطوات منه، تسأله ما بك محمد؟ ومن كنت تنادي في منامك؟ ولم كنت تصرخ بهذا الصوت المكتوم؟

نظر إليها وعيونه لا ترى سواها، هذه المرأة العجيبة، قص عليها ما رأى في حلمه وما حدث في اليومين الماضيين، فظهر الرعب جليًا في عينيها المتغضنتين بخبرة السنوات الطويلة وهي تطلب منه أن يُسرع بالرحيل من هذه الأرض هو وأصحابه، وإلا فلن يسلموا من هذه التي اختارته لتأتيه محذرة.

ضحك على أفكار جدته العجوز، وأخبرها أنه يبحث بالفعل عن أرض أخرى، لكنه لم يجد بعد.

خرج من منزله عائدًا إلى حيث أصحابه، يرى من بعيد كيف وقفت الماشية ترعى في كل مكان، فالأعشاب النامية في الأرض كثيرة تغري بالبقاء حقًا حتى تنتهي.

قص على أصحابه قول جدته ليشاركوه أفكاره، فأخذوا يسخرون من أفكار العجوز التي عفى عليها الزمان، فمن يفكر اليوم في حكايا الجن والأساطير التي كانت الجدات يحكينها قبل النوم للصغار!

جلس ثلاثتهم في نفس المكان ككل ليلة، أشعلوا ركية النار وجهزوا الشاي، وأبت عيونهم النوم، فالليلة مميزة والقمر يسطع بدرًا في وسط السماء، تكاد تشعر به معلقًا فوق شجرة الجميز التي يفوق عمرها عمر الجدة بأضعاف.

أراد كل واحد منهم أن يثبت للآخر شجاعته وأنه لا يخشى أيًا من بنات الإنس ولا حتى الجان، وأخذوا في الصياح بصوتٍ عال:

- فلتظهري يا امرأة.. فها نحن هنا بانتظارك لن نبرح أبدًا..

صرخة مدوية صمت آذانهم فجأة، لتتجمد الضحكات على وجوههم، ويعلو صوت الصمت بعدها على كل ما عداه..

في الصباح التالي تجمع الأهالي الذين سمعوا صرخة الأمس ولم يجرؤ أي منهم على الاقتراب، فهذه الصرخة قد أنبأت كل من بالجوار أن الشجرة الملعونة قد عاد ساكنوها للظهور من جديد بعدما كسر البشر اتفاقهم القديم بعدم الاقتراب.

جلست الجدة تبكي حفيدها الذي سخر من كلماتها، تنظر نحو الشجرة وتقسم على ساكنيها أن يرحموا أهل الرجال الثلاثة ويخرجوهم للأرض ثانيةً.

سمعت صوتًا يهمس بجوار أذنها، ابحثوا عن ثلاثتهم أسفل الصخرة الموجودة في مياة النيل تحت ظل الجميزة.

تعريف بالكاتب

* عبير سعد.
* كاتبة مواليد محافظة دمياط
* حاصلة على ليسانس آداب قسم لغة فرنسية جامعة المنصورة عام ٢٠٠٥م.

- عملت كمحرر صحفي ومدققة ومراجعة لغوية وتحرير في جريدة العدد الأول الإلكترونية منذ عام ٢٠٢٢م وحتى شرفت برئاسة قسم المقالات لنفس الجريدة في عام ٢٠٢٤ بفضل الله.

☆ أعمالها السابقة..

* مجموعة قصصية تحت عنوان "في ظل الشجرة" عن دار الزيات للنشر والتوزيع..
* مجموعة قصصية تحت عنوان "نسل الدجال" عن دار الزيات للنشر والتوزيع..

* كتاب خواطر نثرية، تحت عنوان "عزف حُر"، عن دار ديوان العرب للنشر والتوزيع..

المُحتَوياتْ

١ فتون ١١

٢ بنت القمر ٢٣

٣ كوب يانسون بارد ٣٧

٤ ميلاد حلم ٤٧

٥ عندما قالت لا ٥٩

٦ أدرينالين ٦٩

٧ ليال ٧٧

٨ ستة أشهر ٨٥

٩ الشيخة صفي ٩٥

١٠ سَبْع الرِجال ١٠٥

١١ صخرة لثلاث رجال ١١٧

تعريف بالكاتب ١٢٧